السلطان عبد العزيز آل فيصل آل سعود

سلطنة نجد و ملحقاتها (١)

حدودها : شرقاً خليج فارس من الجافورة وقطر الى رأس المشعاب ثم منطقة الحياد بـ نجد والكويت من رأس المشعاب الى رأس القليّة .

جنوباً خط يمتد من أبها في عسير الى ملتقى الخطين الثامن عشر من العرض الشمالي والسادس والاربعين من الطول الشرقي ، ثم يدور شمالا الى السليّل ومنها حول الربع الخالي شرقاً الى الاحقاف فحدود قطر فالجافورة حتى الخليج .

شمالاً منطقة الحياد بين نجد والعراق ، وهي في شكل قطعة بقلاوة بين الخطوط ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ من العرض الشمالي والخطوط ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ من الطول الشرقي ، ثم خط يمتد من قرب شعب الاعوج شمالاً الى بير ليفه ، ثم شمالاً بغرب الى بير مُنَيْيا فجديده فجبل عنيز السكائن بين الخطين ٣٢ و٣٣ من العرض الشمالي والخطين ٣٩ و٤٠ من الطول الشرقي .

اما غرباً فمن جبل عنيز الى شرقي الاردن ومن شرقي

---

(١) محافظة على التاريخ ابقيت اسم سلطنة نجد وحدودها كما كانت يوم رحلتي سنة ١٩٢٢ اما تطور البلاد النجدية واتساع حدودها ومبايعة سلطانها ملكاً بعد ذلك فقد دونت اخبارها في كتابي « تاريخ نجد وملحقاته » .

الاردن الى آخر الحجاز الجنوبي الغربي فلا تزال الحدود مختلفاً عليها . الا ان الجوف وحرّة خيبر هما اليوم في حوزة سلطان نجد .

عدد سكانها : نحو مليوني نفس[1]

مساحتها : نحو خمسمئة الف ميل مربع .

اهم قبائلها : مطَير وحرْب وعتَيبة وسبيع والدّواسر والعجمان والعَوازم والسهول وبنو مرة وقحطان .

اهم مدنها : الرياض وبرَيده وعنيزه وحايل وثرمده وشقرا والمجمَعه وحريملة والهفوف والقطيف .

مذاهبها : الوهابية والشيعة وبعض السنة .

(١) اما اليوم سنة ١٩٦٧ فيبلغ عدد سكان المملكة نحو سبع ملايين نفس
الناشر



المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل فيصل آل سعود

شئنا حرَيملا فشاء الله ضرُمى (1)

العقبات الثلاث بيني وبين ابن السعود – في فم البركان بعدن – الحمى والجدري والانكليز – قلت نجد ، فقالوا : العراق – جاء الاذن بالسفر – الشرطة تستقبلني في بمباي – السفر الى العراق – مغبوط محزون – الامر الذي يتعلق بسفري – وكيل ابن السعود يصل الى بمباي – « مولانا السلطان يرحب بكم» – والانكليز لا يأذنون– كتاب من كاتب اسرار الحاكم العـــام في الامور السياسية الى مدير الشرطة في بمباي .

كنت في لحج يوم كتبت الى السلطان عبد العزيز اطلعه على الغرض من رحلتي في البلاد العربية واستأذنه بزيارته والسياحة في بلاده . وكان بيني وبينه بحر الهند ثم النفود ثم الدهناء ثم الانكليز . اما العقبـات الثلاث الاولى فقد كانت والحق يقال سهلة بالنظر الى الاخيرة . كتبت كتابي قبل ان سافرت الى صنعاء وارسلته بوساطة تاجر معروف في عدن ليرسله الى وكيل ابن سعود في البحرين ، وفي الكتاب رجوت من عظمة السلطان الاسراع في الجواب عن يد وكيله القصيبي حتى اذا مررت بالبحرين في سفري الى العراق اتشرف بعلم تتوقف عليه خطتي في الرحيل . وكان في نيتي اذا جاء الجواب بالايجاب ان اسوح في نجد قبل ان ازور العراق .

عدت بعد ثلاثة اشهر من صنعاء الى عدن واقمت فيهـــا تحت سرادق القيظ ، في فم البركان ، بين اشباح الجـــدري والحمى ، ستة

---

(١) مثل من امثال نجد يضرب بمعاكسات الزمان ، وحريملا وضرُمى بلدان في العارض هم يُسكنون فاء الاسم«اضرُمى».

اسابيع انتظر من اصحابي الانكليز اذناً بالسفر الى -- الى نجد ؟ كلا . بل الى العراق . فان ابن سعود عند هؤلاء الاماجد شخص مقدس لا يدنو منه غير المقربين من قدس الاقداس على شاطىء التيمس . وانك اذا جهرت لاحد الوكلاء او المندوبين السياسيين في السواحل العربية برغبتك تجد الرجل واحداً من ثلاثة : فاما انه يرجىء ويسوف سياسةً ، او يبتسم هزءاً ، او يرفض بتاتاً . وقد لقيت الثلاثة في اولياء الامر بعدن . قلت : نجد ، فقالوا : العراق . قلت : ابن سعود ، فابتسموا ثم رفضوا : لا علاقة لنا بالرجل واموره . ثم جاءني كتاب من الحاكم يقول فيه : قد وصلنا نبأ برقي من المندوب السامي في العراق يأذن لك فيه بالسفر الى بغداد . ومن كتاب آخر تلاه علمت ان لا بأس بمروري بالبحرين ، واني بعد مقابلة اولياء الامر في بغداد اسافر الى نجد اذا كان جواب ابن سعود يأذن بذلك .

كان قد مرّ اربعة اشهر ونيف على كتابي الى السلطان عبد العزيز ، فسافرت من عدن الى بمباي قاصداً من هناك البصرة ، وفي قلبي تشوق الى الجواب شديد . ولا اكتم القارىء ان رغبتي بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات .

وصلت الى بمباي فوجدت ان امري موكل برجال الشرطة هناك . ولكنهم اكرموا وفادتي فزرت الدائرة ولم يكلفوني زيارة السجن . وقد اظهر المدير رغبته في التعرف الى هذا السائح العربي الاميركي الذي تفتح له ابواب قفلت مراراً دون سواه ، اذ ان السفر في تلك الايام حتى الى العراق كان محظوراً على غير البريطانيين . وقد علمت

ان بعض التجار الاميركيين انتظروا شهرين في بمباي ليجيئهم الاذن بالسفر الى العراق ، وكانوا بعـــد ذلك من الخائبين . فلا عجب اذا أكبر امري . وقد ظهر لي ، بعد ان اقمت اسبوعا في بمباي وتحدثت وبعض رجالهـــا من تجار وكتاب وسياسيين ، اني من المغبوطين في سفري الى بغداد . ولكن ذلك لم يسرني كثيراً .

شئنا حريملا فشاء الله ضرمى . قال المدير :أُمرنا بان نسهل طريقك الى العراق . واظنهم اي « اولياء الامر » في ما كتبوا الينا يقولون ان لم يصلهم الجواب من ابن سعود . سأبحث عـــن الجواب وارسل نسخة اليك اذا شئت . شكرت المدير هذا التلطف وعدت الى الفندق فاذا بعض التجار والادباء من المسلمين ينتظروني هناك . وقد اخبرني احدهم – وما كان حديثي في تلك الايام ليخلو من سؤال عن نجـــد وسلطان نجد – ان عبدالله القصيبي وكيل ابن سعود في البحرين وصل صباح ذاك اليوم الى بمباي فبادرت في اليوم التالي اليه يصحبني الحاج علي رضا زَينل احد كبار التجار في الهند وفي الحجاز .

وكان موضوع الحديث السلطان عبد العزيز وكتابي اليه . قال الوكيل : نعم وصلنا كتابكم بوقته وارسلناه الى حضرة الامام ، فجاء الجواب مرحباً بكم وقد أمرنا باعداد كل ما يلزم من اسباب السفر والراحة عند وصولـكم الى البحرين . ثم قال : ونحن من زمــــان ننتظركم . ابطأتم في السفر او انكم غيرتم في الخطـــة التي كتبتم الى حضرة الامام عنها . قلت ، لا التغيير ولا الابطاء بيدي . فقال : بل بيد الله . فقلت مستفهماً : واصحابنا الانكليز ؟ فضحك الوكيل وسكت وبعد رجوعي الى الفندق استلمت كتاباً من معاون مـدير الشرطة ضمنه نسخة الامر المتعلق بسفري ، وهذه ترجمته الحرفية :

الدائرة السياسية مكتب كاتب الاسرار . بمباي في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ من آي . ف . كيندرزلي كاتب اسرار حاكم بمبـــاي في الامور السياسية الى مدير الشرطة .

الموضوع سفر المستر امين ريحاني الى البحرين ونجد .

سيدي .

جواباً على كتابكم رقم ف — ٢٠٧١ المؤرخ ٢١ آب سنة١٩٢٢ اقول ان قد أمرني الحاكم ان اخبركم لـكي تبلغوا المستر امين ريحاني ان الاذن بسفره الى نجد لم يصلنا حتى الان ولكنه منتظر في البحرين . اما سفره الى العراق فلا اعتراض عليه . وفي كل حال يجب ان يسافر اولاً الى بغداد . اتشرف يا سيدي بان اكون .

خادمكم المطيع

عن كاتب الاسرار السياسية

دجاي . اراتون

اما التناقض بين كلام الوكيل ، وكيل ابن سعود في البحرين ، وامر الحكومة ، حكومة بريطانيا في الهند ، فسوف تنجلي الحقيقة فيه .

في بغداد

حقيقتان جوهريتان – مفتاح نجد – انكليزية عراقية – ولا تزال امرأة – التقارير السرية – الملك فيصل – صراحة بحدود – سكوت يشف عن الريب – وما الغرض الحقيقي من رحلتي ؟ – «جزيت على ابتسام بابتسام» – المندوب السامي – حادث العيد في القصر – زيارة ابن السعود – أشد العقبات – « ولتغبن الانكليز » – الحفلات الادبية – اما السياسة فالبيداء دونها – تباركت المرأة – الباب ينفتح – تعللني بالوعود – « سأبقى في بغداد الى ان يجيئني الاذن بالسفر الى نجد » – صوت في الهاتف يقول : « ستسافر مع المندوب السامي » – ما قضت به الحكمة .

لم يُؤذن لي بالسفر الى البحرين .

شئنا حُريله فشاء الله ضرُمَه . وصلت الى العراق وقلبي يحدثني بنجد ، وفكري يبعدني عن حسن الظن بالانكليز . وقد وجدتهم في بغداد، كما هم في بمباي، السادة المطاعين برغم النهضات الوطنية والحركات السياسية . ثم بدت لي حقيقتان جوهريتان استنرت بهما قولاً وعملاً في عاصمة العباسيين . الحقيقة الاولى هي ان مفتاح نجد للاجانب الذين يبغون الدخول الى تلك البلاد من الجهة الشرقية انما هو بيد المندوب السامي . اما الثانية فهي ان الباب قلما يفتح لغير الانكليز ، بل لاولئك القلائل منهم المنتدبين لامور سياسية او المقربين من النظارة الخارجية . وقد رفض الوكيل السياسي في خليج العجم غير مرة ان يأذن لبعض الاطباء الاميركيين في البحرين بالسفر الى نجد . هذه هي الحقائق الراهنة التي جُبهت بها في الدوائر السياسية وغير السياسية . بسموا

لجسارتي بل لجهالتي في الحديدة ، واحالوني في عدن على المندوب السامي ، وسوّفوني في بمباي . فما عسى ان يكون من امرهم في بغـداد ؟

بعد ان زرت جلالة الملك فيصل على شاطىء دجلة الشرقي جئت الى دار الوكالة في الشاطىء الغربي، لاقابل السيدة جرترود بل" كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية . والعراقيون يدعونها الخاتون . الا انها في قوامها ونحولها وتيقظها انكليزية لا غبار عليهــا . كانت المقابلة الاولى في مكتبها . وكانت ، وهي القابضة على زمام الحديث ، تدخن السيكارة تلو السيكارة ، ثم تنهض عن المقعـد فتتخطر في القاعة ، ثم تجلس وترفع رجلًا على رجل وهي تتكلم ثم تتكلم بدون انقطاع . فقلت في نفسي : لا تزال الخاتون امرأة والحمد لله . عرضت امــامي عقلها في الجلسة الاولى فاعجبت به ، وكشفت الحجاب عن زاوية من قلبها فدهشت . بل كادت ترفع الستار السياسي كله لتريني انها اخلصت العمل لفيصل وللعراقيين ، وان الانكليز لا يزالون اصدقاء العرب واقرب الناس اليهم . ثم قالت : لا شك انك تيقنت ذلك في رحلتك يا امين افندي .

كنت شاكراً لانها لم تقف لتسمع جوابي ، بل استمرت في الحديث .

واطلعتني على امور تتعلق برحلتي لم استغرب علمها بها ، لاني اعلم ان وكلاء انكلترا السياسيين ومندوبيها في البلاد العربية يتبادلون التقارير السرية من حين الى حين . ومنهم من يكتب تقريره كل اسبوع فيرسل نسخاً منه لزملائه في مصر والسودان والعراق والهند .

عادت السيدة جرترود الى الملك فيصل الذي كان في تلـك الايام

غاضباً على المندوب السامي وعليها ، فلا يوقع المعـاهدة المشهورة بين الانكليز والعراق فقالت : قد سعيت سعياً متواصلاً من اجـل الملك فيصل ، فاقنعت رؤساء العشائر واستملتهم اليه . كانوا يقولون لي يا امين افندي : هذا حجازي اجنبي ، وكنت اقول لهم: انا اكفله ، انا الكفيل. صدقني يا امين افندي اني احب العراق اكثر من حبي بلادي. انا عراقية .

تفكهت في مجلس الخاتون وتفكهت. على ان اعجابي بها وهي امرأة كان اقل من ارتيابي بشأنها وهي ولية الامر او ولية العشائر في العراق. ولا يظنن القارىء ان كاتبة المندوب السامي باحت بكل اسرارهـــا العربية في الجلسة الاولى . لا ، ولا في الجلسات العديدة التالية .

ما جئت على ذكر السيدة جرترود هنا الا لانها كانت في عهـــد السر برسي كوكس تقبض على مفاتيح الامور السياسية في العراق ، وفي البلدان العربية والعجمية على الخليج ، يتولى المندوب السامي البت في شؤونها . ومفتاح نجد من هاته المفاتيح ، فهل تأذن به يا ترى ؟

سألتها سؤالاً دون ان اكشف عما جال في صدري من الريب بحسن نية زملائهـــا ، ودون ان اشير الى التناقض في ما قاله لي وكيل ابن سعود وما كتبه حاكم بمباي ، فتغيرت عندئذ لهجتها وتغير اسلوبها، فلم تجبني بالصراحة التي عرضت امامي مثالاً منها في حديثها عن العراق. ذلك لانها كانت لا تزال في ريب مما قد يكون من امري وسلوكي في بغداد . أجئت مبشراً بالوحدة العربية ، ام جئت اضرم نار الثورة على الانكليز ؟ أجئت انصر الحزب الوطني او الحزب الحر او اصحاب الانتداب ، ام جئت من اميركا رسولاً سرياً لشركة من شركات النفط ؟

هي بعض الاشاعات التي انتشرت في بغداد وحامت على مكتب الخاتون ، ولكنها لم تتنازل ان تسألني سؤالاً واحداً صريحاً بخصوصها. بل كانت في حديثها تشير اشارة الى ما فيه الحجة الراهنـة – بحسب ظنها – على علمها الوافر الشامل بكل ما يختص بالسياسة البريطانية في البلاد العربية . اظنها اتخذت سكوتي دليلاً على الاقتناع ، او انهـا قرأت فيه شيئاً من الميل الى التصديق . واللوم او بعضه عليّ . فقـد كنت حتى في ابتسامي اول مرة قابلت الخاتون غـير الرجل الذي اعرفه ويعرفه النـاس . وما ذلك الا لخوفي ان تحول دون رغبتي ، فداريتها في دارها . على اني لم اخاتل ، ولم اداج ولا جمجمت الكلام في كل ما القيته من الخطب في بغداد . خرجت من مكتب المس بلّ ونفسي يتنازعها الريب والامل . هي الحاملة المفتاح ، مفتاح نجد ، فهل تفتح لي الباب ؟

بعد ذلك قابلت المندوب السامي السر برسي كوكس ، فكان نقيض كاتبة اسراره الخاتون في انه اولى جليسه اولاً الحديث . سألني سؤالات تتعلق برحلتي فاجبته عليها بصراحة زمامها التحفظ . ثم ذكر حادثة القصر عندما راح يهنيء الملك بعيـد جلوسه ، فتكلم بما يبرىء نفسه من العسف والاستبداد في نفيه زعمـاء الحزب الوطني واقفال جرائده ونادیه . ثم انتقلنا في الحديث ، فاخبرني ان في نيته زيارة السلطان عبد العزيز قريباً ، عله يتوفق الى رتق الامر بينه وبين العراق وهناك معاهدة يريد استئناف المفاوضات بخصوصها .

قلت : زيارتكم اذن في سبيل السلم والولاء بين اثنـين من ملوك العرب . فقال : بل اكثر من اثنين ، وان اقصى تمنياتي ان امهد سبيل الاتفاق والولاء ما استطعت . فقلت : هو كذلك قصدي وسعيي .

خذني معك الى ابن سعود فأخدمك في ما تأذن بـــه ولا اتقاضاك والحكومة البريطانية اجرة على ذلك . فضحك وفاه بكلمة لم اسمعها ، لان الخادم دخل يقول : الغداء حاضر . فاستأذنت وانصرفت

خرجت من مكتب المندوب كما خرجت من مكتب الخاتون متيقناً ان محجتي لا تزال بعيدة ، بل ان العقبة الاخيرة بيني وبين نجد هي كما قلت في اول الفصل اشد العقبات كلها . وليس الذنب في ذلك ذنب ابن سعود . فقد اجاب على كتابي كما تقدم بالايجاب والترحاب . بيد ان للانكليزي في سياسته عوامل يتساهل احياناً بالعرضي منها ليتمكن من مقاومة ما هو جوهري خطير .

جلست اسأل نفسي واناقشها : هل يمنعونك وانت تحمل الجنسية الاميركية ؟ قـد منعوا غيرك من هذه التبعة ، وهم يكرهونها في العراق . الا يستطيع قنصل اميركا السعي من اجلك كما فعل زميله في عدن ؟ هو لا يعترف بالعجز ولا يتيقن الفوز اذا سعى . ألا يقدرون خدماتك في اليمن وعسير فيجازوك عليها ولو باجازة سفر الى نجد ؟ الانكليز لا يعترفون رسمياً بخدمات تقدم لهم مجاناً . قد يشكرون وبعد ذلك لا يذكرون . واذا رغب ابن سعود بزيارتك له ورغبوا هم عنهـا فاية رغبــة تحقق يا ترى ؟ لا رغبتك ولا رغبــة ابن سعود . فسلطان نجد صديق الانكليز كما اعلم ويرعى العهود .

هذا ما كنت اعتقده بسياسة ابن سعود في تلك الايام . ولا ازال على شيء من الظن انها الخطة المثلى — وان كانت عــليّ فلست ألوم — في ما لا يضر بمصلحته ولا يجحف بحقوقه . فهــل يعقل ان يعادي سلطان نجد الانكليز من اجل الريحاني عييت عن الجواب ولكني لم افقـد الامل ولا يئست . بل سررت جـداً برغم

معقولي عندما قال المندوب السامي: سأزور قريباً ابن سعود . فرأيت نفسي – وما الفائدة من الخيال ومن الاحلام اذا كانت لا تشركك بنعيمها ? – رأيت نفسي مسافراً واياه الى الحسا . ولم يهمني اني في عملي هذا اثبت التهمة على نفسي. فيقول المخدوعون من الاصدقاء والاعداء: الا ترونه مسافراً والمندوب السامي ? فكيف لا يكون في خدمة الانكليز ? كنت اعود ، ساعة يستحوذ عليّ اليأس ، الى هذه الرؤيا فانعش بها املاً بزيارة نجد كاد يتلاشى ، فينعشني الامل واسمع همس صوت يقول : ولتغلبن الانكليز .

اقيمت الحفلات الادبية في بغداد ، الاولى والثانية ... والعاشرة ، وكانت الحكومة ، حكومة الانتداب ، تبعث من يسمع فيخبرها او يخبر بالاحرى المس بلّ بما اقول . واظنني هدمت جانباً من معقل الريب في اول خطبة فهت بها . تباركت في مثل هذه المواقف المرأة ، فانها اسرع الى التصديق وحسن الظن من الرجل . دعتني المس بل الى بيتها بعد ذلك مراراً . واقامت في مكتبة السلام التي هي رئيستها حفلة دعت اليها كبار العراقيين والبريطانيين وافتتحت هي الحفلة بخطبة ما اثّر فيّ ثناءٌ مثل الثناء فيها ، ليس لانه من امرأة عالمة فهيمة ، بل لانه من نفس احسنت بعد ان اساءت الظن ،واخلصت بعد ان اظهرت الوداد .

ومع ذلك كنت عندما اقول : نجد . تقول هي : العراق . وعندما اقول . ابن سعود ، تعللني بالوعود . ولـّى الشهر الاول وتلاه اسبوعان من الشهر الثاني في بغداد وانا رهين مكارم الادباء العراقيين ومعهم كما اشرت بعض افاضل البريطانيين . وقد تسنى لي ان ازور اثناء ذلك الاماكن التاريخية والآثار القديمة في العراق .

متى اتخم السائح من بلادٍ ما ، تقفل ابواب عقله دون الاستفادة منها مهما كان من اسبابها ومظاهرها ، شبعت من العراق ، وسئمت الاقامة خصوصاً في بغداد لاني مرضت فيها ثلاث مرات بالحمى . زد على ذلك اني كنت مشتاقاً الى بلادي واهلي ، فحدثتني نفسي مراراً بالسفر الى لبنان . الا اني كتمت ذلك عن المندوب وعن الخاتون ، وما اظهرت غير تلك الرغبة الشديدة في زيارة ابن سعود . بل أشعت في مجالس رسمية اني لن اتحرك من بغداد حتى يجيئني الاذن بالسفر الى نجد . الحرب خدعة وحرب الارادات لا تخلو من الخداع . اني على يقين ان لو علم المندوب السامي آنئذ بما جال في خاطري ، لو علم اني سئمت الاقامة في بغداد وكنت على وشك السفر الى لبنان ، لسوفني اسبوعاً آخر ولأفلحت سياسة الملاطفة والتأجيل . فاكون قد حرمت علم اهم ما في البلاد العربية اليوم .

ولكن المس بل" اخذت الامر بناصيته عندما حان وقت السفر المندوب السامي والتني معروفاً اسجله لها ، شاكراً سعيها وحسن ظنها . كلمتني يوماً بالهاتف وقالت : ستسافر مع المندوب السامي . بيد ان سقوط وزارة لويد جورج في ذاك الحين اضطر المندوب الى تأجيل سفره . وبما اني كنت وعدت ادباء البصرة بزيارة سافرت من بغداد قبله ، وفي نيتي حسب الاتفاق ان انتظره هناك ، فنترافق الى البحرين ثم الى العقير .

اشرت فيما تقدم الى مظهر في سلوكي هو ثمرة الاسفار في البلاد العربية ، بل ثمرة الحكمة العملية فلولا تلك الحكمة كنت فشلت في اولى المراحل وعدت خائب الامل . اجل ، قد داريت في بعض الامور ، واكثرها سطحية ، لأفوز بكل ما اروم من العلوم والاخبار .

او بالاحرى كنت صريحاً على عادتي عندما كانت الصراحة تفيد . وقد كنت اشد تحفظاً واتقاء في الاسفار حباً بالرجوع سالماً اولاً الى اهلي وثانياً الى مهنتي . اذ ما الفائدة لمثلي من رحلة عربية اذا كنت لا اسلم فيها لأخبر عنها ولو في كتاب واحد ؟

كانت الحكمة العملية شرعتي اذن ودليلي . فهي التي حملتني على السفر وحدي الى ابن سعود. واظنها أوحت للسر برسي كوكس كذلك في الموضوع فانتصح مثلي بنصيحتها ، فابرق يخبرني بانه سيتأخر اسبوعا ثانياً وان لي ان اسافر قبله اذا شئت . حسناً فعل المندوب السامي وحسناً فعلت انا كما سترى في سياق هذا الكتاب .

في البحرين

نجدي يحذرني من السياحة في نجد – رسول اليقين والخير – « عظمة السلطان ينتظركم في الحسا » – من سراديب بغـــداد الى قصور البحرين – في ضيافة وكيل السلطان – الشوق يهمد والفكر يشتغل – من هو ابن سعود ؟ – ما سمعته في الحجاز وفي العراق – رأي الانكليز – رأي اديب نجدي – كتاب من السلطان – ما تخبئه الصحراء .

وقد حاول بعض اصحابي في البصرة ان يحوّلوني عن عزمي وقصدي. قالوا اني لا اقوى على مشقات الاسفار في البلاد النجدية ، في تلك البلاد الغنية بالمفاوز والرمال . جسموا في عيني المخاطر في ركوب البعير ، وفي الدهناء ، وفي بلاد البدو والاخوان . كنت ذات ليلة اضيف حضرة الفاضل احمد الصانع متصرف البصرة ، وهو نجدي لا يزال يلبس العباءة والعقال ، فقلت خلال الحديث عن اليمن : عندمـا دخلت الى صنعاء احسست اني رجعت بغتة الى الجيل العاشر . فقال احمد باشا : وسترجع الى الجيل الخامس في نجد . ما لك وهـذه السياحة وكلهـا مشقات واخطار ! يمكنك ان تزور ابن سعود في الحسا وترجع . هوذا نجدي يحذرني من السياحة في نجـد . فهلا انتصحت وارعويت . لا انكر انه اعتراني آنئذ شيء من الخوف .

على انه زارني في اليوم التالي اديب من الادباء،شاءت الاقدار ان يكون بعدئذ رفيقي في السفر وعشيري في الرياض ، فعرفت فيه العربي الحر ابن القفار والبحار الذي يسرك ويسيء اليك عفواً دون تكلف في احد الامرين . وسيجتمع القارىء، من حين الى حين ، بالسيد هاشم

ابن السيد احمد الرفاعي من الكويت. كان يومئذ فيخدمة سلطان نجد كاتباً من كتاب ديوانه ، قد جاء البصرة في مهمة رسمية ، فزارني يوم كنت والحق يقال في حاجة شديدة الى زيارة مثله . حدثني السيد هاشم فأزال ما كان يخامرني من الخوف في السفر الى نجد ، ومن الريب برغبة ابن سعود الحقيقية في زيارتي ، ثم قال: عظمة السلطان يعرفكم مما يطالعه عنكم في الجرائد التي تصل اليه كل اسبوع ، وهو متشوق الى مشاهدتكم وينتظركم في الحسا . . . نعم ، السلطان عبد العزيز يحب الاجتماع بكل اديب عربي مخلص لبلاده . وقعت هذه الكلمات في اذني وقع الانغام المطربة . ولكنت قبّلت السيد هاشم بين عينيه لو ان الرسميات التي الفتها في البلاد العربية تسمح بذلك . الا ان القلب رقص طرباً دون ان يشين ادبي او يحط من كرامتي امام الزائر الكريم . سافرت وانا في هذه الحال الى البحرين . ومن حسن الاتفاق ان السيد هاشم كان رفيقي في الباخرة .

البحرين ، جزيرة اللؤلؤ ، هي بعد الكويت اهم محطة في الجهة الغربية من خليج العجم لبواخر الهند وللتجارة بين الهند ونجد . وهي كذلك درجة امام الباب — باب نجد الشرقي — لا بد للمسافر ان يقف عندها فيستبدل فيها بالبخار الشراع اذا كانت وجهته العقير او القطيف . وفي البحرين وكالة لابن سعود يرئسها عبدالله القصيبي احد اعضاء البيت التجاري المشهور هناك .

نزلنا من الباخرة بعيدين عن الجزيرة وسرنا في شراع فوق منازل اللؤلؤ الراقد تحت الامواج ، والبحر ساعتئذ رهوٌ ، والهواء عليل ، وشمس الصباح تتهادى على الاثنين . فبدت المنامة خلالها مشرقة بيضاء كأنها ابراج شيدت من اللؤلؤ . بل هي اميرة اللآلىء وقد صعدت من

اماكن الغوص واستوت على عرش الخليج . وكان الشراع يهمس سلاماً كلما مرّ بشراع آخر ، وكلها مثل اجنحة الحمام تميس وتتهادى على بساط من الزمرد ، كأنها تتلو القصائد في مديح ربة الدُر ودُرة البحـار .

وما ساءنا ان وصلنا اليها لانها عن كثب وعن بعـد سواء ، فمن الرصيف سرنا الى بيت على البحر جميل أعده القصيبي لضيوفه وضيوف سلطان نجد . وكنت انا والسيد هاشم في اليوم الاول سيدَي تلك الغرف الفسيحة المشرفة كلهـا على الخليج ، وذاك الايوان الواسع الطويل المحيط بها من الجهات الاربع . ثم انفردت في اليوم الثـاني بالسيادة فأنساني هذا القصر سراديب في بغداد كنا نأوي اليها في النهار ، وسطوحاً نلجأ اليها في الليل . ليست البحرين من بلاد نجد . على ان ضيافة ابن سعود ومكارمه تبادر الزائر اليهـا لترحب به وتحييه باسم سيد العرب في بلاد العرب . جاءني القصيبي بكسوة وبخياط يوم وصلت فاصبحت في اليوم الثاني وانا عربي نجـدي في ما تحت وما فوق الزبون (١) وزرت في المحرّق الشيوخ ، شيوخ آل خليفة فعلمت ، آسفاً اني اخطأت فيما سبق من امري فلم انزل ضيفـاً عليهم . ولكني قمت ببعض الواجب وكان عملي على ما اظن مرضياً .

عند دخولي البحرين فقـدت حريتي فيّ ما يتعلق بالاسفار او بالاحرى تنازلت للسيد هاشم عنها . وكان من فضل الرجل انه وقف نفسه على خدمتي قبل ان ينتدبه السلطان لذلك . فمنذ اليوم الاول في الجزيرة الى آخر يوم في الرياض تواصلنا وتآخينا في ما يشمل العقبات وشيئاً من الروحيات . بيد انه لا بد في مثل هـذه الحال من فترات

---

(١) الزبون في العراق وفي نجد هو القباء او ما يسمى في سوريا القنباز .

تنقبض فيها النفس فتضيق الطريق ، ويسيء الرفيق الى الرفيق .

سافر السيد هاشم وحده الى الحسا ليجيب عن المهمة التي انتدب لها في البصرة ، فأرسلت معه كتاباً الى عظمة السلطان اخبره بوصولي الى البحرين ، وعدت بعد ان خلوت بنفسي الى النظر في ما اجتمع لدي من الآراء المتضاربة بابن سعود . عندما قربت منه سكن الشوق قليلاً واستيقظ الفكر وما يلازمه من الهواجس والظنون . فقد كان شوقي قبل وصولي الى البحرين كنار الغضا تأججاً ، فاصبح وقد قربت محجتي ، وزالت – وذُلّلت – العقبات الكبرى ، كلهيب العرفج صامتاً هادئاً .

ذكرت ما قيل في الحجاز وفي العراق: ابن سعود بدوي جاهل . ابن سعود جلف ، لا قلب ولا دين له . هو من الخوارج ، بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين . والاخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله . يسلبون وينهبون ، ويكفرون من لا يقتدي بهم . يشنعون بالقتلى في الحرب ويرتكبون من الفظائع ما تقشعر منه الابدان ... ان دعوة ابن سعود مذهبيـة لذلك لا تنجح خارج نجد . لا أمن في الجزيرة ولا راحة للعرب ومطامع ابن سعود تزداد يوماً فيوماً . هذا ما يسمعه الناس دائماً في الحجاز وفي العراق ، وقد رددت الشام ومصر صدى القطرين .

وذكرت ما قيل لي في الحديدة وفي عدن وفي دار الوكالة البريطانية ببغداد : ابن سعود رجل كبير . هو نابغة بلاده ، هو السياسي المحنك ، والقائد الباسل ، والحاكم العـادل . هو اكبر امراء العرب اليوم واقواهم ... رجل عظيم رجل نجد . هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حين الى حين كبار الرجال . فيظهرون فجأة ويسودون الناس بالعقل

قبل ان يسودوهم بالسيف . هذا ما كان يقوله الانكليز وبعض العرب خارج الحجاز والعراق .

اما الرأي الاول فمصدره مكة والاشراف . بل هو ثمرة ذاك العداء القديم الذي لا يزال مستحكماً بينهم وبين الوهابيين . ومصدر الرأي الثاني هو المشاهدة والمنقول عمن شاهدوا . وقد يكون مصدره السياسة او المصلحة السياسية . كنت اعجب عندما اغربل هذه الآراء المتناقضة في سلطان نجد لما تبقى في الغربال فاقول : وشهادة الصديق مثل شهادة العدو ، اساسها الميل والغرض . فلا تصدق الاشراف ولا تصدق الانكليز . الرجل حليف هؤلاء وصديقهم ، وهو عدو اولئك الاكبر .

ثم اجتمعت في البحرين برجل يرى غير ما يراه الفريقان ، وهو اديب نجدي وهابي معجب بابن سعود ، الا انه قليل الكلام فيه . سألته رأيه فقال : انت ذاهب اليه والراغب مثلك في الحقيقة يصم اذنيه ويفتح عينيه . ثم قال ، اسألك يا حضرة الاستاذ بل ارجو منك ان تشير على عبد العزيز وتلح عليه ان يفتح المدارس في بلاده . رسخت هذه الكلمة في ذهني لان قائلها مجرد عن الاهواء السياسية والمذهبية . هي مصباح بيد صديق لابن سعود اضاء موطناً من مواطن الضعف في بلاده ، وقد ذكرتني بكلمة متصرف البصرة : ستنتقل وانت في نجد الى القرن الخامس .

كان في البحرين يومئذٍ رجل آخر معجب بابن سعود ، راغب في تحسين حال من احوال نجد ، هو الميجر دكسون وكيل المندوب السامي او بالاحرى مأمور الارتباط بين المندوب السامي في العراق والسلطان عبد العزيز . ذلك لان السلطان طلب من الانكليز ان يكون

اتصاله بحكومة لندن رأساً بوساطة مندوبها في بغداد لا بحكومة الهند [1] والميجر دكسون انكليزي وُلد في سوريا وله شغف بالعرب وبلادهم . حدثني ذات يوم قال : ابن سعود رجل عظيم وقد يكون نظري فيه نظر من يؤله الابطال . هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم . عنده السيف ، وله القلب الكبير ، ولكن يلزمه ادارة في ملكه . ويلزمه زيادة في الخراج . اني اود من صميم قلبي ان يكون القطيف ميناءً كبيراً لنجد ترسو فيه البواخر فتتحول اليه التجارة من البحرين ومن الكويت . على ان ذلك يستوجب ان يكون في القطيف قنصل بريطاني . والسلطان عبدالعزيز لا يقبل قناصل في بلاده . حدثه في الموضوع عندما تقابله .

هاك من انكليزي معجب بابن سعود نوراً يضيء موطناً آخر من مواطن الضعف فيه . ولكن هل هو من مواطن الضعف ؟ كأني باهل نجد يقولون نحن نخشى الاجانب ولا نريدهم في بلادنا . الرجل الاولى تجر وراءها الالوف . انه لعذر مقبول ، ولكن مـا العذر في الجهل ؟ أيكره التعليم غير البدو ؟ أبدوي اذن سلطان نجد ؟ وهل للبدوي اخلاق سامية وشعور لطيف ، ومطامع في الدنيا مقرونة بالحكمة والاعتدال ؟ ها اني قربت من ابن سعود فقربت من الحقيقة فيـه ، وبت انتظر جوابه لأصل اليها واتيقنها بنفسي . وهاك الجواب الذي جاءني بعد اسبوع من سفر السيد هاشم :

---

(١) الفرق بين الاثنين كالفرق بين طريق العربات في الجبال وطريق الرجل اي المقربة ، ان لحكومة الهند مثلاً وكيلاً في البحرين ، ولها دوائر سياسية ونظارة خاصة في لندن لا يهم ابن سعود شيء منها . لان علاقته هي مع نظارة الخارجية . وما حكومة الهند غير عقبة ، بل هي مثل الدهناء بينه وبينها .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود الى حضرة الوطني الغيور والمصلح الكبير امين افندي الريحاني المحترم دامت افضاله امين .

سلاماً وشوقاً وبعد فبأشرف طالع وردني كتابكم الكريم المنبيء بوصولكم الى البحرين وانكم مزمعون التوجه الى طرفنا . اهلاً وسهلاً على الرحب والسعة . بالله لقد سررت جداً بذلك فطالما كنت مشتاقاً للقياكم . وقد حققت الايام شوقي والحمد لله . الا انه لا يسعني الا ان اظهر شديد أسفي لعدم اشعاركم لنا تلغرافياً في حين توجهكم من البصرة ذلك الامر الذي اوجب فتوراً قليلاً في اخبارنا وكيلنا في البحرين لملاقاتكم لاني سألت الخبيرين بمعرفة اوقات وصول المراكب الى البحرين وعلمت منهم ان المركب القادم من البصرة ربما يتأخر ولهذا وحده حصل تأخير منا فارجوكم المسامحة . نحن بانتظاركم وقد أمرنا وكيلنا القصيبي ان يهيء لكم سفينة تقلكم الى العقير وبوصولكم اليها تجدون السيد هاشم بانتظاركم وبالختام تفضلوا بقبول الاحترام ودمتم .

في ٢٧ ربيع اول ١٣٤١ الختم

هذا اول كتاب جاءني من السلطان عبد العزيز، نشرته لتظهر حقيقة فيه اثبت الخبرُ خبرها. فيظهر ان الرجل لا يتكلف اللطف والتواضع، لانهما من خلاله الفطرية . ولكان اللطف والتواضع اجمل ما في الكتاب لولا درة الاخلاص . ومع ذلك فلا بد من التحليل والتعليل توصلاً الى الحقيقة كلها . قد تقترن عفواً رقة الشعور بالشدة حتى في البدوي ،

فهو اذ ذاك رجل كبير الخلق . وقد تقترن كرهاً اي صناعة ، فهو اذ ذاك سياسي يحسن التلبيس والمجاملة . وقـــد لا تقترن قطعاً ، فهو أسواء كان شديد البأس ام دمث الاخلاق ، رجل عادي له من يومه ما لعامة الناس . فهل الرجل الذي انا زائره ممن طُبعوا على شيمة اللطف والرقة وكانت القوة فيهم او في اعمـالهم بنت الحوادث والاحوال ؟ ام هو سياسي محنك يغلب خصومه بالمكارم ويسود امته بالدهاء ؟ هل ابن سعود من اولئك الافراد القليل عددهم في البلاد العربية بل في العالم اجمع ، اولئك الذين يبقون على شيء من الفطرة مهما عظموا او تعاظمت شؤونهم ، اولئك الذين يسيرون الى محجتهم في الصراط المستقيم فيأخذون الحكمة من لوح الوجود لا من الكتب ، ينبغون ولا يتفوقون ، ويكرهون ولا يخاتلون ، ويحبون ولا يملقون ، ويسودون ولا يظلمون ، ويعدلون ولا يخافون غير الله ؟ اننا في الطريق وستنكشف لنا الحقيقة التي تخبئها الصحراء دون ذلك الافق اللازوردي وراء تلك الاكام الذهبية .

ملوك العرب

في ظل الشراع

حسنات السفر البطيء — السفينة والقطار — منكرات البخار — في ظل الشراع الجلبوت — سكنت الريح — طرد في القبة — الامير يرفع الشراع — «شلنا وتوكلنا على الله» — الرياح تسبق البخار — الصلاة في ظل الشراع — الامير والقصر — ما هما في نجد ؟— العقير — موانيء السلطان الثلاثة — الطريق الشرقية الى نجد — سفن اليم وسفن الصحراء تتبادل احمالها .

من حسنات الاسفار تنوع اسبابها وطرقها . وان البطء في القديم منها أحب الى السائح من البطء في الحديث الذي اخترع ليطارد الريح فينهب كما يقال المسافات . ما الفائدة من بخار لا يحسن النهب ؟ ابحرت من عدن ووجهتي ابن سعود فاجتزت اولاً بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سيرها ، ثم خليج العجم ، فصغرت الباخرة وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والايام . ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلع مرجرج — هو اثر من آثار الحرب — لا شك ان قطار الشحن في اميركا اسرع منه ثم عدت من بغداد في مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسي الا أكون غير شرقي كسول فلا اعدُّ الساعات ولا احاسب البخار والآلات . فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وان تعددت ايامها . ثم في رجوعي من البصرة الى جزيرة البحرين خبرت في البواخر ابطأها سيراً فقلت : تباركت الاقدار في الاسفار . هي تبدّل في الاسباب التي تزداد بطئاً كلما قربنا من محجتنا ، فنتمرن اثناء ذلك على الصبر وعلى التأمل والتفكير . وسنصل الى تلك المحجة برغم طول المسافات وبطء المطايا البخارية

والحيوانية ، اللهم اذا ثبتنا في السير والترحال .

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول اليها . وكيف لا وكل خطوة الان تُدنيني من البغية القصوى ، فقد ذللت من العقبات البحر والانكليز ولم يبق امامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار ، وارض لا تلين لغير الابل . ان الساحل في تلك الزاوية ، جنوباً بغرب من البحرين ، على مسافة اربعين ميلاً من المنامة ، هو اول ما نشاهده من ملك ابن السعود . هنـاك العقير (١) وشاطىء الاحساء الذي يُرى من مكان في آخر الجزيرة يدعى رأس البر . اما المسافة بين البـلدين فهي رهن الشراع ، والشراع رهن الرياح . فاذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الاجداد ست ساعات فقط . واذا عارضت تفوز بالثلاثين . وقـد تتجاوز الثلاثين اذا كنت الى « نبتون » من المقربين .

احبني إله البحر فاستبقاني في مجلسي بالجلبوت (٢) نهاراً واحـداً وليلتين ، بعـد ابحارنا من ميـاه المنـــامة مساء سكنت الريح ولم تتحرك بما يرضي الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية . وكنت اثناء ذلك اذكر القصيبي بالخير واشكره خصوصاً على كرسي جعلته سريري وعلى طاهٍ انعشني بشيء من المرق . وبينما انا نائم في الليلة الثانية ، او بالاحرى مرميٌ كطرد في القبة وقد برد الدم مني وتعقدت الاعصاب ،

(١) القاف في بعض الكلمات تلفظ جيماً في نجد فيقولون العجير .

(٢) الجلبوت مركب شراعي صدره ، وهو للبضـــاعة ، مرتفع مستطيل وفي مؤخره قبة أو علية المسافرين يسميها الملاحون "عرشة" . وهو اذا كان كبيراً شبيه بالمهيلة في العراق وبالسنبوك في البحر الاحمر ، واذا كان صغيراً فلا يكون له عرشة فيشبه البلم . اما اسمه جلبوت ، ولا يسمى كذلك الا في البحرين ، فهو على ما اظن تحريف jolly boat في الانكليزية اي مركب للنزهة .

سمعت صوت الناخوذاه يصدر الاوامر برفع الشراع، وسمعت الملاحين يرددون انشاداً: «شلنا وتوكلنا علاالله». شلنا وتوكلنا علاالله . فتحركتُ في معقلي الصغير وقد انعشني الهواء كما انعش من الجلبوت الشراع . وشكرت مسكّن الرياح ومثيرها ، فقلت : لا شَيل يقينا لولاه ، ولا توكل على سواه — شلنا وتوكلنا على الله .

كنا في الهجيع الثاني من الليل قريبين من برٍ ظننته الاحساء فما صدق الظن . وشد ما كانت دهشتي وخيبتي لما علمت اننا لا نزال عند بر الجزيرة . على ان الرياح تجاري اذا شاءت البخار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا اظنك اذا كنت ملاحاً تماريني في ذلك . اجل ، عندما ينتفض فيمتلىء الشراع ، فقل للمسافات: الوداع . ان هي الا ساعة حتى اجتزنا رأس البر وكان الهواء قد اثقل جفني فنمت قليلاً ، ثم ايقظني صوت الملاحين يشتغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : صلّ على النبي ، « صلّ عالا النابي ! » ما سمعت في انغام الليل على المياه اطرب منها . الا ان يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس في صلوات الامم كلها ادعى منه الى الورع والخشوع ، وقلّ فيها ما هو اجمل وقعاً في النفس من صلاة الملاح في ظل الشراع .

صلى اخواني الفجر ، عندما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن سعود، وهو اخضر ذي حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا إله الا الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وامير القصر ، فمشينا معهما الى البيت المعد للضيوف ، وفيه سرير ابهجني مرآه . واعجبت كذلك بذوق رفيقي الذي علم السبب في ابطاء السفينة وقرأ في وجهي قصة الليلتين ، فتركني والسرير وانصرف .

ذكرت الامير والقصر . فلا يظنن القارىء ان القصر قصر وان الامير امير . بل هي اسماء اصطلح اهل نجد عليها . فهم لا يرغبون في الالقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة وقد ساوى بينهم دين التوحيد شرعاً وسنة . اما اذا شاء امامهم ان يسمي عماله امراء . فهم لا يعترضون . واذا شاء النجدي ان يسمي خربة له في الصحراء قصراً فلا الامام يعترض ولا الرعية . اما الامير الحقيقي عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به احداً ، ولا يخاف ولا يرتجي سواه . واما القصر الحقيقي فهو المسجد .

ليست العُقير بمدينة او قرية ولا هي حتى مضرباً من مضارب البدو . انما العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد في الاحساء على ساحل الخليج . العقير هي احد موانىء السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجُبَيل شمالا منها . ولكنها موانىء قلما يُرى فيها غير المراكب الشراعية . ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية الى نجد .

اما القصر فهو بناء كبير مستطيل يقيم في جناح منه الامير والضيوف ويستخدم الجناح الآخر للجمرك وللحامية التي لا تتجاوز العشرة الانفار . وامام القصر على الساحل ساحة كبيرة تمرح فيها الابل وتُنزل اليها البضاعة ، فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم احمالها . الخام والارز والسكر من بمباي والنفط من عبّادان ـــ احملها يا بعير الى ما وراء الدهناء . والتمر من الحسا والجلود والصوف من سدير والوشم والسمن من الخرج والافلاج ـــ خذها يا جلبوت الى البحرين لتُنقل من هناك الى ما وراء الخليج والبحار .

ملوك العرب

الملتقى في النفود

قدوم المندوب من العراق – خروج السلطان من الحسا – اول يوم على الذلول – الغزالتان – النفود – ام الذر – الحمّار المجان – المراح والمناخ – الشيوخ – الارض الذهبية – السادة والخدم يلعبون – حلم تحققه الايام – « مَن الربع » « السلطـان قادم اليـكم » – التأهب لاستقباله – سجادة ورجل ونار مشبوبة – «يا سعيد» الليل والنفود – « ضج المـكان بموكب السلطان » – السلطان يزورنا في الخيمة – ما قيل له وما قاله بخصوص الريحاني – امراء العرب والوحدة العربية – « حنا (نحن) العرب » – اول من دعـا الامراء الى الاجتماع والائتلاف – رجل يثق بالله وبنفسه .

يوم سفري من البحرين اخبرني الميجر دكسون بان المنـدوب السامي السر برسي كوكس يسافر من بغداد في القريب العاجل وقـد يصل الى الجزيرة بعد بضعة ايام . وعندما وصلت الى العقير اخبرني السيد هاشم بان عظمة السلطان يخرج قريباً من «الحسا» ليلاقي المندوب السامي في المكان الذي نحن فيه . فاخرجت خارطتي وقست المسافة بين الحسا والعقير – ٤٠ ميلاً – وقابلت بين اثنتي عشرة ساعة على الذلول ذهاباً ومثلها اياباً ، اذ لا بد من الرجوع مع السلطان ، وبين يوم على الشاطىء استعيد فيه قواي واستعد ، اتمرن على ركوب البعير ، للسفر في البادية ، فكان الحكم والحكمة في جانب الثاني . وكتبت الى السلطان اطلعه على حقيقة حالي واستشيره في الامر . – اذا امرتم بالقدوم اليكم او بانتظاركم في العقير فسمعاً وطاعة في الحالين .

حمل كتابي نجاب الامير صباح الثلاثاء، وعاد صباح الاربعاء بجواب فيه ما تناهى من لطف الاسلوب ورقة الشعور . الامر راجع لرغبة

حضرتكم وتبعاً لراحتكم . وقد اخبرني السلطان انهم سيخرجون يوم الخميس من الحسا ويسيرون الهوينا ليصلوا صباح السبت الى العقـــير . كنت قد عزمت على ملاقاته في منتصف الطريق اذا قويت على ذلك ، وعندما علمت من السيد هاشم بان سموه قد يرغب في الاجتماع بي قبل ان يجتمع بالمندوب السامي شددت حقوي وقلت : الى البادية .

اعدّت لنا الركائب فسرحنا — سافرنا — صباح الخميس انا ورفيقي الاديب يصحبنا خمسة من الخدم . وكان اول عهـــدي بالذلول (١) وبالنفود (٢) فابهجتني هذه وازعجني ذاك . بل كنت في كل حركة احس بشيء تحتي او حول رجلي وجنبي لا يجوز في نظري ان يكون هناك . والغزالتان (٣) بليتان ، تدق الواحدة صدري والاخرى ظهري

(١) الذلول الهجين المعد للركوب ، من ذلل « للركوب » . ولا يكون الذلول غالباً الا ناقة وما سمعت له جمعاً فهم عندما يريدون الجمع يقولون الركائب .

(٢) النفود بادية رمل بين ساحل الخليج والاحساء تمتد من القطيف شمالاً الى رأس الجافورة جنوباً وعرضها من حيث تقطعها الى الحساء ٢٥ ميلاً . اما الاسم فقد يكون مشتقاً من نفد اي نفدت الارض من المـــاء والكلاء . والنفود تختلف عن الدهناء في تكوين تلالها الرملية وعلوها . فهي في بعض الاماكن شبيهة بالجبال وليس فيها مفال اي مراع والدهناء في بلاد العرب واحدة ، والنفود كثيرة .

(٣) الغزالتان خشبتان مرتفعتان مستقيمتان في الكور ، واحدة الى الامـــام والاخرى الى الوراء تقيان الراكب من السقوط ، وتستخدمان في التحميل لشد الحبال وتعليق الاحمال . وهما في شكلهما وفي وضعهما انواع . فالغزالتان في نجد مثل الخطين المستقيمين في الهندسة ، او مثل الشمعتين في شمعدان واحد . وفي بعض الاكوار تراهما مائلتين الواحدة نحو الاخرى وترى الراكب بينهما كأنه فحمة في ملقط . ولكن النجدي على الذلول اقوم من الغزالة واثبت . اما في الشمال اي في بادية الشام فالغزالة توضع في شكل زاوية منفرجة : الواحدة الى الوراء والاخرى الى الامام ، فيصبح مكان الجلوس في الكور منفرجاً والراكب مهما حدا في مأمن من الدق والاحتكاك . اما اهل عمان فهم يستغنون عن الغزالة ، والكور عندهم مثل السرج الانكليزي .

كلما حدوت الى الامام والى الوراء . والكور ، اكاد اطيح منه . هو مائل الى الامام ، مائل الى اليمين ، مائل الى اليسار ! والشداد -- الرحل -- ان فيه ما يحتك بالجنب، وما يقرص الرجل، وما يسيء -- يسيء الادب ! يا سيد هاشم ! ... فاجابني بقوله : ابشر ابشر .

بارك الله فيه ما كان ألطفه في تلك الايام واكرمه . أنخنا الركائب، وجاء احد الخدم يقول سم [1] فعدل الرحل واصلحه . ثم ركبنا وتوكلنا على الله ، فاجتزنا الاول والثاني من افاق النفود الذهبية ، ووصلنا الى مكان يدعى ام الذرّ [2] ، أنخنا فيه وكنت انا اسرع الى ذلك من سواي . لان «سم» الخادم لم تصلح الرحل ولا ألانت قلب الغزالة . عندما أنخنا طفق الربع ينكتون الرمل بايديهم فيظهر الماء تحت قدم او قدمين منها . ان ام الذرّ مورد القوافل الوحيد في هذه الطريق من النفود .

ملأنا القرب واستأنفنا السير . وكان معنا حمّار مجّان، كثير الاسفار والهذيان ، يحمل حماره بعض المواعين والحطب ، وهو يعدو وراءه كالسعدان ، فيرقص رجليه ويديه ، ويسمعنا نكات اهل الامصار -- البصرة والبحرين والكويت -- ويمثل لنا رقص البطن ، ويردد كلمات ما سمعتها لا في الشرق ولا في الغرب . حمّار مجّان ! ما رأيت اصقع منه حينما كان يجثو على ركبتيه كل مرة يظن نفسه أجاد ، وما أجاد بغير البذاءة لفظاً وايماء . على انه انساني بعض ما كنت اقاسي من ركوب الذلول . وكانت ضحكتي تضيع في قهقهة الربع ، وكلمتي تتلاشى عند امواج ثرثرتهم .

---

(١) سم مختصر بسم الله في اصطلاح اهل نجد .

(٢) ام الذر من شجر حول المكان يدعى الذر وهو شبيه بالعشر .

– اسمع ياهويدي تصغير عبد الهادي – جاوب الاستاذ . هو يسألك أيشو الـ « مَوْتَر »[1] ؟

– الموتر يا افنـــدي تجري ، وتغزل ، وتدور . الله ، الله ! الدمشوقة ، الخفيفة ، السريعة الحركة هي الموتر .

قال هـــذا وهو يهز كتفيه وعطفيه . مهما كان من بذاءة الرجل فقد أحسن الي في يومي الاول في البادية ، فخفف مشقة عشرين ميلًا اجتزناها في ذاك اليوم . ثم مرحنا[2] العصر في مكان يدعى العلاة[3] وعلمنا من بعض الذين كانوا قادمين من الحسا بان الشيوخ[4] مارحون في الجشة على مسافة عشرة اميال منا . فارسل السيد هاشم رسولاً يعلمهم بمكان مراحنا ، واننا سنقف لهم هناك في الطريق صباح الغد واظنه رغبة في راحتي ، أباح للرسول بما كنت احاول كتمانه . قل للامام : ذبح[5] الذلول الاستاذ .

ولكن التعب والالم لا يدومان طويلًا في فسح الرمال وسكينة النفود فبعد ان نصبنا الخيمة وشببنا النار وتقهونا[6] تهافتت حسنات

---

(١) على ساحل الخليج وفي العراق يسمون السيارة «موتر» من اسمها الانكليزي Motor ويطلقون في البصرة اسم الموتر على الراقصة التي تجيد الرقص .

(٢) مرح القوم اي أناخوا للمبيت وسرحوا اي خرجوا من مراحهم . ويسمى المكان المراح . اما الاناخة فلا تكون الا للراحة ولشرب القهوة اثناء الرحيل .

(٣) العلاة من علو المكان على ما اظن وهو لا يعلو أكثر من ثلاثمئة قدم فوق سطح البحر .

(٤) يطلق لفظ « الشيوخ » في الاصل على الامام وحاشيته من اقاربه وخدمه اذا كانوا مجتمعين . ولكن اهل نجد يخرجون عن القاعدة الاصلية فيقولون الشيوخ وهم يريدون السلطان او الامام بعينه .

(٥) انهكه واضناه في اصطلاحهم .

(٦) شربنا القهوة .

المكان عليّ . فملكني من السرور ما كان قد هجرني راكباً ، ورحت اتغنى بمدح ارضٍ يحلو هواؤها ، يحلو شكلها وفسحاتها ، ويحلو لونها وسكونها . يحلو وطؤها ، تحلو مجسّتها . وبعد العشاء تبارينا برمي الجريد ، وتسابقنا حفاة في العدو ، ووقف ماجد على يديـــه ليبرهن لرجحان ان رجليه أعلى من رأسه (اي رأس رجحان) وانـــه مستقيم وان كان ابدُوي — بدوياً — كيفما وقف او مشى ، وانه قوي يغلبه بكل شيء : بالصراع ، بالعدو ، بالقنص ، بالركوب ، وبال ... أوقفناهما عند هذا الحد في المفاخرة ، فاستعاضوا عنها بالغناء و « اللعب » اي الرقص .

دخلت الخيمة والخدم لا يزالون في السمر ، فاستلقيت على السرير وانا في بهجة مَن حققت الايام حلماً من احلامه . فها هي الصحراء ، وهوذا الهجين ، وهؤلاء العبيد عبيدي ، وها انا ذا جار لأمـــير من امراء العرب ، لسلطان نجد . ما كاد هذا الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتاً يسأل : من الربع ؟ ثق أناخ عند نارنا رجلان عرفهما السيد هاشم ، رجلان من رجال السلطان ، جاءا ينبئاننا بان رسولنا وصل وان سموه — نهض السيد هاشم مدهوشاً وبادر إليّ يقول : قم يا استاذ ، قم حالاً . السلطان قادم الينا .

نهضت مسرعاً فارتديت ثيابي — وما احسن الثياب العربية خصوصاً في مثل هذه الحال . حسبك عباءة تغطي بها قميص النوم ثم كوفية وعقال ثم — حي الله الجاي ، مرحبا بالضيف .

راح الربع يجمعون الحطب للنار وفرشنا انا والسـيد هاشم البيت ! مددنا السجادة ثم وضعنا الكور في الصدر مسنداً على عادة العرب — وهذا كل ما هنالك تأهباً لاستقبال مليك من ملوك العرب .

وكان الليل صافي الجبين ، رقيق الجلباب ، شأنه في البادية . تدنو النجوم في سمائه من الارض بريقاً ، وتسمع فيـــه الاصوات ، كأنها على طول المسافات، الابواق في الغابات، لها دوي لطيف ينجد ويغور وصدى يتموج كالنور ، وما ارهب وما اجمل صوتاً سمعناه آنئذٍ وراء الاكام في مروج الليل ينادي : يا سُعَيِّد يَسْعَايِّد ! مبشراً بقدوم السلطان او بمروره في ذاك المكان، ان المنادي ليتقدم الموكب السلطاني حتى اذا سمعه احد من البادية او الحضر يروم من سيد البلاد امراً ، او يحمل اليه شكاية ، او يبغي الركوب في موكبه ، فهو يقصد مسرعاً الى مكان الصوت فيفوز ببغيته يا سُعَيِّد – يَسْعَايِّدْ ! [1]

وبعد هنيهة ضج المكان ، بموكب السلطان ، فاناخ عندنا ، على اكمتنا ، حول شراعنا الصغير ، مئتان من الركائب ، وهي تزبد وترغي إخ – إخ – وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل ، ثم نُصبت الخيام ، وشبت عشرات من النيران، وسُمعت على الفور المداق في الاجران

خرجنا نبادر الى استقبال الزائر الكبير ، فاذا هو قد خف الينا ، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته ، قلت الزائر وهو الذي شاء تلطفاً وتنازلاً ان يعكس الآية ، وكانت المشاهدة الاولى على الرمل ، تحت السماء والنجوم ، وفي نور النيران المتقدة حولنا ، الفيته رجلاً لا يمتاز

---

(١) سُعيد تصغير التصغير الشائع كثيراً في نجد وسعيد نداء ابن سعود يدل على تواضع في امراء هذا البيت جميل . كأن الامير يقول لكل واحد من رعيته : ان السعادة الكبرى من الله . واما الصغير الصغير منها فقد يجيئكم من الامير . ولاكثر امراء العرب منادون وكلمة نداء خاصة بهم ينادي بها كذلك يوم يخرج الامير الى الحرب او الى الغزو . في الحجاز مثلاً كان نداء الملك حسين : يا فرحان . وفي جبل شمر كان نداء ابن الرشيد : يا مرزوق .

ظاهراً بغير طوله ، وكان يلبس ثوباً ابيض ، وعباءة بنية ، وعقـــالا مقصباً فوق كوفية من القطن حمراء .

اين أبهة الملك وفخفخة السلطنة ؟ انك لا تجدها في نجد وسلطانها وان اول ما يملكك منه ابتسامة هي مغنطيس القلوب. لست ادري كيف حييته وانا في دهشة وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة . ولكني اذكر انه حياني باسماً بالسلام عليكم وظل قابضاً على يدي حتى دخلنا الخيمة فجلس والكور الى يمينه يستند اليه ، والنار قبالته تنير وجهه . ثم عرّفني بمن كان في معيته ، وهما الدكتور عبدالله الموصلي (١) وعبداللطيف باشا المنديل (٢) فجلسنا كلنا في صف امامه .

وما أضعنا وقتاً في تبادل المألوف من السلام والتحية . اعتذرت عن الابطاء في الوصول اليه وقلت ان سأطلعه على حقيقة الامر فيعلم ان الذنب ليس ذنبي ، فقال : علمنا بذلك واستغربناه ، اما نحن فما ترددنا ولا ابطأنا في الجواب ، وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب ؟ قالوا لنا انك اميركي وجئت تبشر الدين المسيحي في البـــلاد العربية ، وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات ، وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف وقالوا غير ذلك ، فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف

---

(١) الدكتور عبدالله الدملوجي الموصلي هو طبيب السلطان . وكاتب سره في الامور الخارجية ، ورسوله وترجمانه ووكيله في ما يختص بالاجانب سواء أكانوا من رجال الحكومة أم من رجال العلم السائحين ، والدكتور عبدالله درس في الاستانة ، وخبر الطبابة في الحروب وخبر الحياة في عواصم اوروبا ، فطاف وشاف وعاف ، عافاه الله ، ثم رسا في نجد .

(٢) عبد اللطيف باشا المنديل ، صديق السلطان الحميم ووكيله في العراق ، هو نجدي الاصل ، عراقي الاقامة ولا يزال للبداوة اثر في حديثه وفي سلوكه الحر .

نتقيه . واذا كان فيه ما ينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع . ونحن اعلم يا حضرة الاستاذ بمهمتك . بارك الله فيك .

فاستأذنت ان اخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي فقلت : وقد تم الاول بمشاهدتكم ، وسيتم الثاني بما سأكتب ان شاء الله في ما شاهدت اما الثالث فلا يتم الا بمساعدة ابن سعود . واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق إلا باجتماع امراء العرب كلهم للتعارف اولاً والتفاهم ، فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم ، ولا يعرف الواحد منهم الآخر معرفة حقيقية .

فاجابني بكلمة صريحة رددتها بمثلها دون ان ادرك انها تلمس فيه وتراً حساساً . فقد تكلمت في حضرته عن امراء العرب كما تكلمت في حضرة سواه ولكنه ، وهو يعرف انه كبيرهم ويظن انهم في غير بلادهم لا يُعتد كثيراً بهم ، لم يسكت عما قلت . فما كدت انتهي من كلمتي ان امراء العرب في عزلة بعضهم عن بعض حتى قال : ومن هم العرب ، حنّا العرب (١) قال ذلك وضرب السجادة بقضيب يحمله من الخيزران .

من غريب الامور اننا في الجلسة الاولى تناقشنا في الموضوع . وما كان ذلك نقصاً في تأدبي . فلم اكن لاقدم على مساجلته في تلك الساعة لو لم يتقدمني بصراحة علمت بعدئذ انها من سجاياه الكبيرة ، وانه قلما يقف فيها عند حد من التحفظ . اجل ، قد هدم السلطان بكلمة من كلماته حواجز الرسميات ، فجعل نفسه تنازلاً في مقام الصنو والرفيق .

ـ لك الحرية يا حضرة الاستاذ ان تتكلم معي بكل حرية . ولا اقبل منك غير ذلك . وانا أكلمك بكل حرية . ولا تتوقع مني غير ذلك . انت تقول امراء العرب . اسمع انا اعلّمْكْ . انا اعرفهم ، وقد

(١) حنا اي نحن .

خبرتهم ، وعجنت عودهم ، العرب يا حضرة الاستاذ لا يعرفون الا مصلحتهم ، وغالباً لا يعرفونها فنعلمهم بها ونكرههم عليها. وقد قاسينا كثيراً في سبيلهم ، وكانت الخيانة في اقرب الناس منهم الينا .

دخل عبد من العبيد يحمل بيـــده اليسرى ابريق القهوة وباليمين الفناجين . فصب للسلطان اولا ثم لي ثم للحضور .

— أتعرف يا استاذ اننـا اول من دعا امراء العرب الى الاجتماع والائتلاف ؟ وسنطلعك ان شاء الله على ما يثبت ذلك . فتتأكد اننا اقربهم الى الالفة والاتحاد . حنّا اهل نجـــد لا نبغي المحافظة الا على امرين : ديننا وشرفنا . . . ثم قال : ولا نثقل عليك الليلة وفيك تعب يدعو الى النوم .

قمنا نشيع السلطان ، وكان قد انتصف الليـل فخيم على المضارب السكون ، ولم يبق حولها غير بصيص من النـار . وعندما عدت الى الخيمة التي كانت منذ حين مجلس سلطان اقل ما يقال فيه انه عربي حرّ كريم لم يكن « فيّ » لا تعب ولا نوم ، فجلست استعرض احاديثي معه ثم اشعلت الشمعة وكتبت في مذكراتي بضع صفحات انقل منها ما يلي:

« ها قد قابلت امراء العرب كلهم فما وجدت فيهم اكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً او مبالغاً في ما اقول . فهو حقاً كبير: كبير في مصافحته ، وفي ابتسامته ، وفي كلامه ، وفي نظراته ، وفي ضربه الارض بعصاه . يفصح في اول جلسة عن فكره ولا يخشى احداً من الناس . بل يفشي سره ، وما اشرف السر ، سر رجل يعرف نفسه ، ويثق بعد الله بنفسه . « حنّا العرب » ان الرجل فيه اكبر من السلطان . وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم

لا بالالقاب . ،. ! جئت ابن سعود والقلب فارغ من البغض ومن الحب كما قلت له . فلا رأي الانكليز ، ولا رأي الحجاز ، ولا الثناء ، ولا المطاعن أثّرت في . وها قد ملأ القلب ، ملأه حباً في اول جلسة جلسناها على ان الحب قد لا يكون مقروناً دائماً بالاعجاب . سنرى . قد عاهدته على ان اكلمه بصراحة وحرية . وسأكون في ما اكتب كذلك حراً صريحاً . . . ولكنني احسن شيئاً من الفراسة ، وصرت اركن الى ما تشعر به النفس في المقابلة الاولى . فضلاً عما عندي الآن من اخبار الملوك للمقابلة والتفضيل . . . اني سعيد لاني زرت ابن سعود بعد ان زرتهم كلهم . هو حقاً مسك الختام » .

كانت الساعة الاولى بعد منتصف الليل عندما نمت والساعة الرابعة عندما ايقظني رفيقي السيد هاشم قائلاً : قام السلطان . وكانت ضجة التأهب للرحيل . سمعت الابل ترغو وتعج وقد بادر العبيد والخدم اليها بالرحال والاحمال . ورأيت النار تشب في كل جانب ، وسمعت المداق في الاجران تدق البن ، ثم صوتاً يؤذن الفجر : الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم ! لا إله الا الله ، لا إله الا الله ! وما هي الا فترة حتى صلى السلطان ورجاله وشربوا القهوة وارتحلوا . رفع العرب الخيام كما يقول الشاعر ، وسرحوا ساكتين .

في موكب السلطان

السفر في نجد – غُلبتُ في الابكار – مهارة تجيئني فجأة كالوحي – في موكب السلطان – من عُلى السنام في النفود – حديث في السياسة اميركا والرئيس ولسون – اوروبا باب من حديد لا شيء داخله – المضحى – الاستقبال على الرمل – « افخر الطنافس في مجلس الله » المراح – ساعة مع السلطان – الذباب في البادية – الصلاة – السلطان يغضب – فهد الهذال والانكليز – لا نبغي غير الحق ولا نخاف غير الله .

من عادات العرب في السفر ، خصوصاً عرب نجد ، انهم يتنادون ويسرون باكراً . والسلطان عبد العزيز ابكر المبكرين دائماً واعجلهم تأهباً للرحيل . حتى انه ليصلي الفجر احياناً اول وقت الصلاة كي لا يضطر الى الاناخة بعد ذلك قبل الضحى . هو نظام عسكري يتمشى عليه ، ولا بدع فالرجل قوي البنية ، شديد العصب ، يكفيه من النوم ساعتان ، ثم ربع ساعة المرحيل .

وها هنا غُلبتُ . قد يكفيني ما يكفيه من النوم ، ولكني في يومي الثاني في البادية لا استطيع ما يستطيعه لا في التأهب ولا في الركوب . الا ان اعجوبة حدثت صباح ذاك اليوم فكان قد سبقنا الموكب الكبير ، موكب السلطان ، وسرت انا والسيد هاشم في موكبنا الصغير نحث الركائب حتى لحقنا به بعد ساعة . وكان الشفق يتموج وردياً وعصفريا على الاكام ، وعقال سلطان نجد الذهبي بادياً في رأس الموكب فوق كل الرؤوس . فاخترقت الصفوف ، احث ذلولي ، وانا معجب بمهارة

في الركوب جاءتني دفعة واحدة ، فجأة ، كما يجيء الوحي الشعراء [١] فاعتزلت ربعي وسرت مستقلاً ابغي الى جانب السلطان مكاناً وفزت به فقال اذ رآني : ما ظنناك تنهض باكراً .

صبّحت ابن سعود اول مرة من علي السنام في النفود . وسرت واياه نحدو في وجه الشمس بصف يتراوح عدده بين الخمس والخمس عشرة من الركائب يتبعه خمسة صفوف او خمسة عشر آخر دون نظام في مثل هذه الحال . اننا في الطريق لا الى الغزو ايها القارىء بل الى مؤتمر سلم يعقد في البادية . لذلك كنت ترى البنادق [١] معلقة بالرحال من الوراء ، والسيوف في اغمادها ثم في بيوت من الجلد تتمايل حولها اللفائف الحمر والشراريب الطويلة . وكل في رحله ملتف بعباءة السكينة والاطمئنان انه لموكب بهيج مهيب . وكنت افضل السير في مؤخره لاملأ النظر منه لولا رغبة اشد ، وواجب احب الي .

السلطان عبد العزيز فصيح اللسان، سريع الخاطر، لطيف الجواب. وهو مثل امراء العرب كلهم يقدم السياسة في الحديث وتهمه على الخصوص منها سياسة اوروبا في الشرق الادنى . على انه شاء صباح ذاك اليوم ان يكون الموضوع اميركا وسياستها مع الاحلاف .

— سألني السبب في سقوط الرئيس ولسون فاعلمته بطرق الانتخابات هناك وبما للاحزاب السياسية من السيطرة على الحكومة وعلى البلاد .

— عجيب الا يسوقهم الشقاق الى الحروب ؟

— يحلون مشاكلهم السياسية بالاقتراع .

---

(١) قد يكون الفضل في ذلك الذلول لا لي. وقد علمت بعدئذ انها من العمانيات اي نجائب الابل التي تأبى السير الا في مقدمة الجيش .

(٢) العرب يختصرون لفظة بندقية فيقولون بندق جمعها بنادق .

— زين . وكم حزباً عندهم ؟

— الرئيسية اثنان والثانوية كثيرة .

— زين . وكيف يُرضي الحزب المنتصر بقية الاحزاب ؟

— الاقلية تخضع يا مولاي لحكم الاكثرية .

— وكيف سقط ولسون اذن وهو الحاكم والاكثرية مع الحاكم .

— لم تكن معه في الانتخاب الاخير فقد هجره من انصاره كثيرون انقلبوا واقترعوا عليه .

فهز السلطان عصاه يربت بها رقبة الذلول وقال: لا اظنهم احسنوا لان ولسون رجل عظيم ، وله الفضل الاكبر في تنبيه الشعوب الصغيرة المظلومة . استنهضهم ولسون الى الحرية والاستقلال . وهو ايضا عرّفنا باميركا . ما كنا نعرفها قبل ولسون . اما اليوم وقد تكلم بلسانها فله فضل عليها كما ان فضلها على العالم . . . انا احترم اميركا ، يا حضرة الاستاذ ، وان كانت سياستها الآن مع الاحلاف غير سياسة ولسون . . . اميركا ام الشعوب الضعيفة . ونحن العرب منهم . والعاقل يكفيه التنبيه والاشارة . . . انا احسن اليك — ومال بوجهه الى من كان في الجانب الآخر منه — أفتبغي كذلك ان اطعمك بيدي ، ان اضع اللقمة في فمك ؟ يكفي ما عملته اميركا ، ما قالته للشعوب الصغيرة المظلومة ، ما قاله ولسون عنها . والعاقل من سعى وانتفع .

اما اوروبا فللسلطان عبد العزيز رأي فيها أفصح عنه بكلمة بليغة وجيزة اذ قال : اشبه اوروبا اليوم بباب حديد كبير ولكن لا شي داخل الباب . وهو لذلك لا يلوم اميركا على اعتزالها الاحلاف وانسحابها من السياسة الاوروبية . ثم قال مخاطباً احد رجاله : ان مشاركة اميركا واوروبا اليوم مثل مشاركتي انا ابن سعود وبادية الشام . ترى

الصحيح .

فهز الرجل رأسه استحساناً .

صعدنا الى الاكمة فسيحة مستديرة بين العلاة وام الذر اختارها السلطان مناخاً فانخنا وتفرقنا ارهاطاً كل رهط جلس في حلقة على الرمل . وكان وقت الضحى (٢) اي ساعة الفطور فطاف الخدم بجفان مما كان قد طبخ الليلة البارحة من الارز واللحم ، ثم قدموا التمر وصبوا اللبن من القرب لمن اراد ، فاكلنا وغسلنا ايدينا ، وكان السلطان قد انتهى كذلك من طعامه فسمعناه ينادي من مكانه : أنجيئكم او تجيئوننا ؟ فبادرنا اليه فتصافحنا ثم عرفني ببعض حاشيته اذكر منهم اخاه محمداً وعبدالله بن متعب امير حايل وعمه فيصل بن الرشيد ، فوقفوا صفاً امامي بعد المصافحة والتسليم دون ان يفوه احدهم بكلمة . ثم باشارة من السلطان انصرفوا . فجلس اذ ذاك سموه على الرمل وقال : تفضل يا استاذ ، هذه احسن سجادة عندنا .

يقيناً هي كذلك . فأي فرش انعم من رمل النفود وانظف ؟ واية سجادة اجمل لوناً واعجب صنعاً ؟ جلسنا متربعين على افخر الطنافس في مجلس الله . وكان السلطان فينا اجملنا اتضاعاً وافصحنا في لغة الحكمة والورع لساناً : « حنّا » اهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على امرين : ديننا وشرفنا .

استأنفنا السير وانخنا بعد ساعتين عند ام الذر التي كانت مراحنا ذاك اليوم . فسرحت الابل ، ونصبت الخيام ، فكان فسطاط السلطان على رأس الاكمة والمضارب حوله متفرقة متنوعة ، منها الخيم الاروبية ومنها بيوت من الشعر كبيرة وصغيرة . ثم حُفرت الحفر وشبت فيها

(١) قبل الظهر بساعتين والمكان الذي ينيخون فيه للفطور يسمى المضحى .

النار ، وأخرجت المعاميل [1] ، وبعد قليل شرع السقاة يطوفون بالاباريق والفناجين. جاء عبد يدعوني الى مجلس السلطان فشربت القهوة هناك وبقيت وسموه ساعة كان الانكليز فيها موضوع الحديث .

عدت الى خيمتي وبي شيء من التعب والنعاس ، فوجدت فيها جيشاً من الذباب استحال عليّ طرده والتغلب عليه . ما رأيت حياتي اثقل واقبح من الذباب في البادية ، في صحراء الرمل ، في تلك الجنة التي جردها الله من كل شيء سوى السكينة والهواء الطيب ، فجاء الذباب يفسدهما عليك ومن اين يجيء ؟ هو يركب الذلول واياك . على ظهرها ، وعلى ظهرك ، وعلى رأسك ، يرافقك مؤاخياً ، فيسبقك الى الخيمة ويذبح فيك ما تبقى من أمل في الحياة .

ثم يُحيي الله سبحانه الامل عند الغروب . فيخرج الناس من الخيام ملبين دعوة المؤذن ويصطفون وراء الامام ، والسلطان وسط الجماعة وأحد الحجاب وراءه يحمل السيف ولا يشترك في الصلاة [2] . وكانت اول مرة سمعت الوهابيين يصلون وهم يرنمون بعد تلاوة الفاتحة : آمين ! فتجيء شبيهة بصلاة المسيحيين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . اذ ذاك يصعد من الصفوف صوت مئتين من المصلين يرنم ترنيماً : آمين ! فيتراجع الصوت في الفضاء المهيب كصوت الاجراس في الجبال ساعة الغروب . ما اجمل اصوات المصلين في تلك الساعة التي تبشر بقدوم الليل وبركاته . اصوات المصلين وهم يذكرون الله رب العالمين — اهدنا

---

(١) المعاميل في اصطلاحهم هي ادوات القهوة اي مقلاة التحميص والجرن والاباريق والفناجين .

(٢) قتل الامام تركي بن سعود في وقت الصلاة فجرت العادة منذ ذاك الحين في استخدام حاجب يحرس الامير ساعة يصلي في الجماعة .

الصراط المستقيم ! فمن ذا الذي لا يردد هذه الصلاة خصوصاً في البادية انها لطلبة تصح حقيقة كما صحت مجازاً في تلك الفيافي والمفازات . اي بالله . ان كل من سار حادياً في بحر من الرمال ، وفي ارض تهب فوقها الرياح فتمحو بنظرة كل اثر من اثار البشر والحيوان ، ليبغي الصراط المستقيم . واننا لنهلك يقيناً اذا ضللناه .

في صباح اليوم التالي جاء نجاب من العقير يحمل البريد الذي يتبع السلطان الى حيث يكون ، وفيـــه خبر من البحرين بسفر المندوب السامي اليها . فدفع الكتاب الى اخيـه ثم الى بعض حاشيته فتناوبوا قراءته وكل يهمس ان الخبر اغضب السلطان .

سار الموكب والسكوت يظلله والمهـابة تماشيه ، فما كنت تسمع غير صرير الرحال وطق الخيزران على رقاب الركائب . ثم رفع احد الركب صوته يتلو شيئاً من القرآن ، وكلنا نحدو في وجـــه الشمس ساكتين خاشعين ، وتحدو تحتنا الابل على نغم الآيات . وبعد قليل ساد السكوت ثانية وقد تجسم فيه غضب الشيوخ . ثم تكلم فاعلمنا بما اغضبه صباح ذاك اليوم .

ان المندوب السامي على ما يظهر قد اصطحب رجلاً غير مرغوب فيه ، رجـلاً من العرب الناقم عليهم ابن سعود . وهو فهـد الهذال [١] شيخ العمارات في الشمال ، والعمارات فخـذ من عنزى [٢] . ولم يكن

---

(١) فهد بك الهذال انتخب بعدئذ عضواً في المجلس التأسيسي في العراق . وقد اصطحبه يومئذ المندوب السامي لانه كما قيل خبير بالحدود بين العراق ونجد . والحقيقة ان السياسة الانكليزية كانت ترجح اعطاءه بعض الاستقلال في ناحيته او تؤسس مشيخة مستقلة من العمارات بين العراق ونجد على طريقتهم حول عدن .

(٢) العرب يسكنون فاء الاسم فيقولون اُعنيزي .

لفهد دخل في المشاكل التي سيعقد مؤتمر العقير من اجلهـــا . بيــد ان
للانكليز قصداً باصطحابه كما ظن السلطان وقد جاءوا يحققون هذا
القصد على حساب ابن سعود . وقد يكون لفهد الهذال كذلك قصد
جاء يحققه على حساب الانكليز .

فرفع رجل نجد صوته في تلك الارجاء الرملية ، وهو على ذلوله
والخيزران بيده ، يسير في رأس الموكب ، بين اثنين من رجاله :

ــ لا لا هذا ما يصير . لا نتنــازل عن شيء من حقوق اجدادنا .
اما اذا قال الانكليز نبغي هــذا منك وجاؤوني بأمر محتوم فانا ابن
سعود اسلّم لهم : ولكن في اول فرصة تسنح اسعى لاسترجاع حقوقي
المهضومة . ترى الصحيح . وماذا يبغون لابن الهذال ؟ وماذا يبغي
ابن الهذال منا ؟ دعهم يغزلون فاننـا لا نتحول عن جادة الحق ، ولا
انعمل عملاً فيه ظلمة او غموض . ووجه هذا الضحى ، لا نعمل عملاً ولا
نقول كلمة فيها ظلمة او غموض .ولا نطلب غير حقوقنـا ولانخاف غير
لله . . . ومن هو ابن الهذال ليجرأ علينا ؟ ابن الهذال الغزال، ليغزل
وعشائره ما شاؤوا وليغزل... «الانكلايز» . . . من اجلهم .قال ذلك
وهو يرفق الاستعارة بحركة من سبابته لطيفــــة . انا ابن السعود لا
اعرف غير الجادة القويمة ولا اقول غير الحق . لست من الغزّالين . اما
« الانكلايز» فهم اصدقائي وانا صديقهم . اذا قالوا : نبغي هذا منك،
قلت :لكم ما تشاؤون . ولكن ــ ولكن الصبر له حدود . ويظهر اننا
قربنا منها ذا الحين . ترى الصحيح .

السلطان عبد العزيز

ينتعل ويتطيب – عيناه وعصاه – الورد والنصل في شفتيه – ساعة الغضب – سرعة خاطره – تهكمه – نكتة من نكاته – الربع الخالي – مدينة العقير – السلطان في الفسطاط – عرشه وفراشه – ساعته و ناظوره – « علينا الكبيرة والصغيرة » – حافظته تيقظه – مع الانكليز على مائدة متمدنة – مع السلطان على الرمل – « نحتسي اللي لنا و اللي علينا » ،

السلطان عبد العزيز طويل القامة ، مفتول الساعد ، شديد العصب ، متناسق الاعضاء ، اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون وله في التاريخ – تاريخ نجد الحديث – مجد اذا قيس بالاعوام تجاوز السبع والاربعين والمئة . يلبس في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء وفي الشتاء « قنابيز » من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو ينتعل ، ويتطيب ، ويحمل عصاً من الشوحط [1] طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه – على تشكيل كلماته ، اذا صحت الاستعارة ، وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة . وله عينان عسليتان تنيران اماكن العطف واللطف ساعـــة الرضى ، وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا . وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية كالحـديد . يتقلص فيشتد ، فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء .

اجل ان ابن سعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير . فيذهب العطف

(١) الشوحط شجر تتخذ منه القسي شبيه بالشربان ينبت في نجد الغربية .

من ناظريه ، ولون الورد من شفتيه . ثم في افتراره يستحيل النور ناراً بيضاء فهو اذ ذاك رهيب . سألني لما كان يصب غضبه على الهذال والغزالين : وما رأيك يا استاذ ؟ وكان بيني وبينه بضع مطايا ولا رأي لي اصيح به في تلك الساعة ، فأجبته بكلمة مألوفة : ان الله مع الصابرين يا مولاي . فردد الكلمة وركز كتف ذلوله برجله ، فراح يُدَرْهِم وتبعناه كلنا مُدرهمين (١)

لا اكتم القارىء انه اعتراني شيء من الانقباض اول مرة شاهدت ابن سعود غضباً . وكنت عندما يقاطعني الحديث قائلاً : اسمع انا اعلِّمك احس اني في مجلس رجل غير الرجل الذي زارني في خيمتي بالنفود (٢) بيد انه سريع الغضب سريع الرضى . فهو اذا ضرب الارض بعصاه مرة يلمس القلب منك عشر مرات . وقد يتسرع في الكلام احياناً ثم يَتَنبَّه لذلك فينتزع من خصمه السلاح . أُحضر امامه رجل ليجيب عن ذنب اقترفه ، فقال بعد ان سمع قصته : الحق عليَّ لاني لم احذرك ، فلا اقاصك هذه المرة .

ان في الرجل ضميراً حياً كحلمه وسرعة خاطر تقارن التيقظ في ذهنه يبدد بكلمة غيوم الانقباض في مجلسه ، ويجلو افقاً قد يكون الاضطراب فيه من كلامه . وهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، لطيف التهكم . كان يحضر مجلسه احد الثقلاء المتعجرفين وهو من بيت معروف في نجد فقال السلطان يصفه يوماً : هو رُبع الدنيا ، ثم اردف كلمته بـ «الخالي» —

(١) الدرهام ، درهم يدرهم ، نوع من الخبب واللفظة من اصطلاح عرب نجد والحجاز وهو ثلاث درجات : درهام خفيف . ودرهام «صقلاوي» نسبة الى الخيل الصقلاوية ، ودرهام يقرب من الغارة .

(٢) النفود ، اي صحراء النفود التي تقع بين ساحل الخليج العربي والاحساء .

وقد اشار بذلك الى الربع الخالي في بلاد العرب – الخالي من كل شيء غير الرمال

عندما نصبت الخيام للمؤتمر في العقير كان نصفها معداً للمندوب السامي ووفد العراق، وهي من الخيام الكبيرة الجميلة، وكانت في معزل عن خيامنا ، بيننا وبينها قرب مئة باع ، وفيها فسطاط للاستقبال وآخر للاكل تناولنا فيه الشاي يوم وصولنا . فقال سموه : هذا شاي متمدن – وكان قد صُب مع الحليب في فناجين كبيرة بدل ان يكون صرفاً في الاقداح كما هي العادة في نجد والحجاز – شاي متمدن !

وسلطان يتهكم ويسر . كان عندما ينتقل من الجهة العربية الى تلك الجهة الاوروبية يقول لي : تعال يا استاذ نسافر الى البلاد المتمدنة . لا تظننا بعيدين كثيراً عنها ، عشر خطوات فقط . . . وها نحن في المدنية – مدنية العقير – هات الشاي يا غلام ! ثم يجلس على الكرسي قائلاً : لنتمدن قليلاً . تفضل يا استاذ شاركنا في التمدن . وهو يشير الى كرسي آخر

نصبت خيام تلك المدنية وخيامنا على تل مشرف على الخليج وفي معزل عن القصر . وكانت خيمتنا ، انا والسيد هاشم ، عند رأس التل قرب الفسطاط السلطاني الكبير ذي الابواب الاربعة التي يُفتح ويُقفل بعضها وفقاً لمهب الريح ولرغبة سموه في الهواء .كان الفسطاط مفروشاً بالطنافس وفي الصدر فراش فوقه سجادة فخمة ورَحْلٌ يقسمه الى مجلسين ، مجلس السلطان – عرشه – ومجلس آخر لمن يُكرم اكراماً خاصاً من الضيوف .

لكل عربي ، من هذا القبيل ، بيته وعرشه ، اي المِضْرَب ، والسجادة ، والرَحْل . والسلطان عبد العزيز مثل كل اعرابي ينام على

الفراش والسجادة في الليل ، ويضعهما تحته على الكور في السفر . وهو لا يحمل شيئاً في جيبه ، لا ساعة ، ولا قلما ولا ذهباً ، ولا فضة . ربما لا يكون في ثيابه جيوب البتة . الا انه يحمل ساعة في خرج عند السفر ويضعها تحت الوسادة عندما يقيم في مكان . يحملها في الصندوق المخملي الذي جاءت فيه من المعمل . ويحمل كذلك ناظوراً كبيراً لا غنى له عنه . فهو دائماً يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه حتى انه لا تمر غيمة في الافق الا رفع اليها الناظور متيقناً متثبتاً . — امورنا مُشكِلة يا حضرة الاستاذ . علينا الكبيرة والصغيرة . فاذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشؤوننا ... العبد والامير ، عيننا على الاثنين حتى ننصف دائماً الاثنين ونعدل بينهما .

كان اذ ذاك يراقب قافلة اناخت عند خيمة المونة تحمل الينا الخضر والماء من الاحساء . فأمر ان يحضر قَيِّمها ، فسأله سؤالاً بخصوص جمل من الجمال ، فقال القيم : هو حَرون يا طويل العمر . فاجابه السلطان : اتركه يرعى مع الجيش (١) لا توجعه معك .

ثم عاد الى حيث وقف في الحديث فاستأنفه قائلاً : العدل عندنا يبدأ بالبل — الابل — ومن لا ينصف بعيره يا حضرة الاستاذ لا ينصف الناس .

كثيراً ما يقف السلطان عبد العزيز في حديث مهم لينظر في أمر ظاهره طفيف ، ثم يدخل عليه احد الخدم او الكتّاب فيقطع عليه الحديث ثانية فينظر في الامر الآخر ، ثم يعود — وهذا ما كان يدهشني — الى الكلمة الاخيرة من حديثه الاول دون ان يسأل كما هي العادة في مثل هذه الحال عند اكثر الناس : ماذا كنت اقول ؟ لا . ما

(١) الجيش تطلق على مجموع الابل من ركائب ومحملات .

سمعته مرة، وكانت احاديثنا معرضة دائماً للتقطيع، يسأل هذا السؤال. فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائما. عليه الصغيرة والكبيرة يقيناً. وله اليد الصالحة المصلحة في الاثنتين

اقمنا في العقير ثلاثة ايام قبل وصول المندوب السامي وكان الخدم في اثنائها — البدو — يشتغلون في تشييد المدنية الجديدة، مدنية العقير! نصبوا الخيام، وفرشوها بالطنافس، والكراسي، والمنضدات وأواني الشرب، والغسل، ومعدات الكتابة. لم ينقص حتى في فسطاط المائدة شيء من اسباب المدنية ونوافلها. فقد جيء لاخواننا المتمدنين بالماء ليس من وراء الحسا بل من وراء البحار — من اوروبا في القناني المختومة. وما فات الانكليز شيء مما الفوه. اما نحن في مضارب البدو فما كان فينا على ما اظن من يحسدهم على ذلك.

اعجب لهؤلاء الانكليز الذين لا يتنازلون عن شيء من «انكليزياتهم» حتى في البادية. رأيت احدهم في رحلتي يسير وفي قافلته حمار يحمل صندوقين كبيرين من قناني الصودا. واظن ان الوسكي كانت مخبأة في الاحمال الاخرى. ولما دعيت الى تناول الطعام على مائدة المندوب السامي كان سعادته وسعادة حاشيته وصاحب الاقبال مندوب العراق في الثياب الرسمية السموكنغ بالعقير! وانا مع السلطان في الثياب العربية. فسر سموه بذلك. ولكنه لم ينتقد «الانكليز» حتى ولا مندوب العراق العربي الذي لم يتنازل فيلبس العباءة والعقال.

— اكلنا تلك الليلة بالاسباب، اي الشوكة والملعقة والسكين، وشربنا من ماء «بزبير» المبارك، وقدم لنا الطعام بانتظام وترتيب، وكانت الحلويات تزيد على ما تعودناه، وفوق ذلك الثمار من موز وتفاح وبرتقال. ولكننا لم نشعر في تلك الليلة بان سعادتنا قد تمت على الارض

وكللت في زاوية من الجنة تدعى العقير .

خرجنا من فسطاط المائدة الى فسطاط الاستقبال فودعنا المتمدنين عند الباب ، وسرت والسلطان عبد العزيز ، وقد نزعنا نعالنا ، نتمشى ويدي في يده ، حفاة على الرمل – على الرمل البـــارد المنعش ، تحت النجوم القريبة البريق، الدافئة الضياء . فاحسست اذ ذاك بان مايقربني من هذا الرجل ويقربه مني ليتجاوز القيــافة والاشتراك ذوقاً ببعض العادات . هو هو السر الذي يقرب منا النجوم ويبرد تحت ارجلنـــا رمال البادية . اليك ايها القاريء كلمة اخرى من مذكراتي :

« مهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء . رجل كبير القلب والنفس والوجدان . عربي تجسمت فيــه فضائل العرب الى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا، وتجسمت فيــه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول ان يخفيــه رجل صافي الذهن والوجدان خلو من الادعاء والتصلف ، خلو من التظاهر الكاذب . قص علينا ليلة امس قصة حرب من حروبه وبيت الرشيد وختم قصته العجيبة بهــذه الكلمات : لا اخذناهم في تلــك الوقعــة ولا كسرونا . ترى الصحيح . نحتسي اللي لنا واللي علينا [1]. نفخ بعد ذلك في يده وقد رفعها في شكل بوق الى فمه كأنه يقول : ننثرها كالهواء لمن يريدها ولا نخاف غير الله .

---

(١) نحكي الذي لنا والذي علينا . عرب العراق والشام يلفظون الكاف تش وعرب نجد يخففونها فيلفظونها تس نحتسي – نحكي .

بين العراق والحجاز

مؤتمر المحمرة – المعاهدات بين نجد والعراق – العمارات والضفير – هم ابناء عمنا – وعنده حجج ثلاث غيرها – رعايا اجدادنا – العمارات والروله فخذان من عنزى – نوري الشعلان وفهد الهذال – ابن سعود والانكليز – الشريف واولاده – جريدة القبلة – كتاب من الملك حسين – حاوي خير – مصالح الانكليز في الخليج العجمي – ابن سعود حامي بريطانيا العظمى – لا يساعدون الامراء في عقد مؤتمر عربي عام ولا يتركون الامراء وشأنهم – كيف يحسمون الخلاف بين اميرين متخاصمين ،

اول مرة قابلت المندوب السامي في بغداد قال لي ، كما يذكر القارىء ، ان القصد من زيارته لابن سعود هو ابرام المعاهدة بين نجد والعراق ، تلك المعاهدة التي عقدت في مؤتمر المحمّرة ولم يوقعها السلطان عبد العزيز لان مندوبه تساهل يومئذ في امر القبيلتين ، العمارات والضفير ، اللتين يدّعيهما وتدّعيهما كذلك حكومة العراق . وقد قال لي الملك فيصل آنئذ ان خير حل لهذه القضية هو ان تعين لجنة من الخبراء بالعشائر والحدود للنظر فيها ، وان تقبل الحكومتان حكمها . فجاء السر برسي كوكس الى العقير ليقنع صديقه ابن سعود في وجوب عقد المعاهدة وقبول حكم الخبراء في العمارات والضفير .

ولكن السلطان عبد العزيز جاء الى الحسا ثم الى العقير لغير هذه الغاية ، ولم يكن يخطر في باله ان المندوب السامي وحكومة العراق يبغيان تجديد النظر في معاهدة المحمرة . فلما علم صباح ذاك اليوم بقدوم المندوبين غضب تلك الغضبة الشديدة وهو راكب في موكبه يجتاز

النفود . ومما قاله لي انه هو الذي طلب الاجتماع بالمندوب السامي ، فدعاه الى الحسا ، وجاء من اجل ذلك يلاقيه الى العقير . اما العمارات والضفير فما كان ليكلف نفسه الخروج من الرياض من اجلهما . وقد كان اعد لمندوبه في مؤتمر المحمرة دفاعاً عن حقوقه فيهما هذه خلاصته :

* : عندما سقطت دولة آل سعود ، انقسمت الى قسمين كان احدهما بيد الترك والآخر بيد ابن الرشيد . ثم ظهر السلطان الحالي ، الذي احيا تلك الدولة واستعاد ملك آبائه واجداده . فاستولى على نجد ، واخذ القصيم من يد ابن الرشيد ، وهزم الترك وطردهم من الاحساء والقطيف . وهو لا يزال يطالب بما تبقى من املاك اجداده وعشائرهم شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً .

* : ان عشيرة الضفير التي تقطن اليوم الشامية « بالعراق » كانت في الماضي من رعايا آل سعود . اما العمارات والرولا فهما فخذان من افخاذ عنزى ، وكانوا يسكنون نجداً خصوصاً القصيم ، ومشايخهم بنو الهذال وبنو الشعلان هم ابناء عم آل سعود ومن رعاياهم .

* : ان الانكليز عندما احتلوا العراق احترموا فيه حدوده السابقة التي كانت تحترمها الحكومة العثمانية . كالحدود الشرقية بين حكومة ايران والعراق مثلاً ، والجنوبية بين العراق والكويت . وقد اعترفوا ايضاً بالاحوال الجارية والقواعد المرعية بين الترك قبلهم وحكام العرب المجاورين لهم ، وفي مقدمتهم امارة بيت الرشيد . وبما ان سلطان نجد الحالي استولى على امارة الرشيد وادخل في ملكه وحوزته جميع ما كان لتلك الامارة المتفرقة من بادية وحضر ، فله الحق بمن تشرد او تسرب منهم ، اي العمارات والضفير ، الى العراق .

كثيراً ما سمعت السلطان يقول : هم رعايا آبائنا واجدادنا ، بل هم ابناء عمنا . وهذه الكلمة الاخيرة كانت غالباً تسبق كل حجة في كلامه عن الخلاف بينه وبين امراء العشائر — هم ابناء عمنا. اضحكتني مراراً منه هذه الكلمة، بل شغلت بالي. فقد تخيلت فيما لو وصلت دعواه الى سوريا والسوريين فماذا كان يحدث يا ترى ! الا ان قوله ان ابن الهذال وابن الشعلان من ابناء عمه مبني على كونهما شيخي العمارات والرولا . وهاتان القبيلتان فخذان من عنزى ، وعنزى كما هو مدون في كتب الانساب، اخو وائل من ربيعة ، ونسب ابن سعود السلطان عبد العزيز يتصل ببكر ابن وائل . فقبيلة عنزى اذن هي كلها جمعاء ابنة عمه وله عليها حق الرعاية . واذا كان نوري[1] لا يحسن سياسة عشائرها وفهد لا يستطيع ان يؤدب بدوها ، فالشوحط بيد ابن سعود يلبي الطلب . وما الشوحط الا خشبة ، اذا كان لا يسارع به الى الشمال فيحمي ذمار ابنة عمه عنزى المشردة الضاربة في بوادي العراق والشام ، شمالي جبل عنيز شرقاً وغرباً ، ويعلمها حسن السلوك ، ليطمئن بالك يا فهد ، وليطمئن بالك يا نوري ، وليطمئن بال صديقتيكما انكلترا وفرنسا . ان لشوحط ابن سعود ما يشغله عنكم الآن . ولكن من يكفل المشاهرات والانتدابات الى الابد ؟

كان السلطان عبد العزيز هو الذي دعا السر برسي كوكس اليه ، وجاء يلاقيه في العقير . اما القصد من هذه الدعوة فمزدوج . حدثني سموه قال : « يظن الناس اننا نقبض من الانكليز مبالغ كبيرة من المال. والحقيقة انهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بها اثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نختلف معهم قبل ان يخلفوا معنا . بيننا

---

(١) نوري الشعلان زعيم الرولا .

وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في انفسنا ومصالحنا . . . الانكليز مديونون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار ان نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الآن ، نراهم يغزلون ويغزلون . تراهم يدسون الدسائس عليّ — عليّ انا صديقهم ابن سعود — احاطوني بالاعداء . اقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من اعدائي ملوكاً ، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية . الشريف في الحجاز ، وابنه عبدالله في شرق الاردن ، وابنه فيصل في العراق . . . ما القصد من هذه الاعمال ؟ وما الداعي اليها ؟ انا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملونني معاملة العدو . . . ومن هو ابن سعود في نظر الشريف واولاده ؟ هو الجلف الكافر الخارجي . ترى الصحيح يا حضرة الاستاذ . قد قالوا ذلك . بل قالوا اكثر من ذلك . وهم مع ذلك يطلبون مني ان احمل على الفرنسويين في سوريا لاخرجهم منها . ترى الصحيح » .

ونادى اذ ذاك احد كتاب ديوانه ، فأمره ان يحضر بعض اعداد من جريدة القبلة ، فاطلعني فيها على قصيدة تثبت كلامه الاخير . قصيدة لشاعر حجازي يستنجد سلطان نجد على الفرنسيس في سوريا . وفي عدد آخر مقالات كلها مطاعن في ابن سعود الجلف الخارجي . فقلت : الصحافة يا مولاي واحدة ، ان كانت في ظل الحرمين او في ظل برج ايفل . والرجل الكبير لا يكترث لاقوالها . فقال السلطان وكان قد احتدم غيظاً ، فذهب القرمز من شفتيه ، ونور العطف من ناظريه : اسمع . انا أُعلِّمك [1] . هذا قول الشريف لا قول احد الكتاب

(١) كانت تغيظني هذه الكلمة « انا اعلمك » حتى سمعتها من البدو ومن احد خدامنا فقلت لصديقي السيد هاشم وقد طفح الكيل : أيعلمني حتى الخدم والبدو

المسترزقين، وسأطلعك على ضده، بخط يده ... هات آخر كتاب جاءنا من مكة .

خرج الكاتب .

ــ هات القهوة .

من عادات السلطان انه حين يحتدم غيظاً يطلب القهوة . فنادى العبد في الباب . القهوة . وكرر الصدى خارجاً عند النار .

ــ لا نسلم بذرة من حقوقنا ، ولكننا لا نقول في اعدائنا ما يقولون فينا ، ولا نطلب غير ما كان لآبائنا واجدادنا قبلنا . ليعلم ذلك اصحابنا الانكليز . وضرب بالشوحط السجادة عند قدميه .

جاء الخادم بالقهوة فوقف امامه وقفة جندي الماني وسلم ثم انتظر الى ان ينتهي من كلامه .

ــ وليعلم ذلك الشريف واولاده . قالها بلهجة اشد من الاولى ومكنها بضربة اخرى • ثم مد يده ، فصب الخادم القهوة ، ثم صب لي ثم للحضور . دخل الكاتب يحمل كتاباً تناوله السلطان ، وبعد ان شرب ثلاثاً دفعه الي . قرأته وانا مدهوش ــ بعد ان قرأت مقالة القبلة ــ مما جاء فيه من كلمات التودد والاكرام والتبجيل . اسلوب الديوان الهاشمي لا يتغير . ثم دفع الي ملحقاً خطه غير خط الكتاب وفيه الخبر اليقين، حاوي خير، فحواه : ان الملك حسيناً يدعو السلطان الى الصلح والى الاتفاق ، ويعرض عليه ذلك مقيداً بشروط منها ان

تابع شرح صفحة ٥٨

في بلادكم وهم لا يتعلمون شيئاً منا ، ولا أحد يتنازل ان يخبرنا أو يتلطف بافادتنا؟ فاجابني السيد : اليك ذلك.فان نجد يعلمك وهو لا يريد بذلك غير الخير. اعلمك هو اصطلاحهم في اخبرك . أو ما سمعتهم يقولون : : هات علومك أي أخبارك ؟ فلا يثقل التعليم على طبعك يا استاذ .

تعاد تربه والخرمه [1] الى الحجاز ، وان يعاد الى ابن الرشيد ملكه في حائل وسيادته في جبل شمر .

– تسلام (كلام) ولا ندري أنصدق الكتاب ام الجريدة .

ثم سألني رأيي وكانت قد تغيرت لهجته وسكنت فيه ثورة الغضب .

– ما رأيك يا حضرة الاستاذ ؟ لا تقل لي ان لا دخل لك بالسياسة ، وان سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط . « حنا » نفهم . ومرّ يده على لحيته وهو يبسم بسمته الخلابة . لا تخدعنا يا استاذ . لا تغزل عندنا في المقاصد والكلام . اصدقنا الخبر . فقد قابلت الشريف وحدثته وقابلت الامام يحيي والادريسي والملك فيصل وحدثتهم كلهم . فاعطني الآن رأيك . ابغي نصيحتك . تكلم ويكفي ان تقول رأيي تسدا (كذا) ولا جزم فنقبله منك . ولكني كلمتك بالحرية وابغي منك مثلها . المندوب السامي يصل غداً . « حنا » دعوناه للنظر في هذا الامر ، امر الشريف واولاده . فما رأيك يا صديقي الاستاذ ؟ وماذا ينبغي ان اقول للانكليز غداً ؟ اراك ساكتا .

كنت قد افصحت عن رأيي فيما يختص بالموضوع وفروعه في احاديث سابقة . ولكني وجدت ان من المستحيل ان نخطو خطوة واحدة بدون ان نتعثر بشيء للانكليز او من الانكليز في كل مكان ، خصوصاً في الخليج العجمي وفي سواحل البلاد العربية على الخليج . فالانكليز يحتكرون الخليج وهم يعززون هذا الاحتكار بنشر سيادتهم على ضفتيه الشرقية والغربية . ان لهم ها هنا ولا شك ما لهم في عدن من مصالح وامتيازات قديمة لا يتنازلون عنها . وهم يأبون ان يكون لسواهم من الاوروبيين او الاميركيين يد او رجل او شراع في تلك

---

(١) راجع الفصل الخاص بالملك حسين بن علي .

البقعة من الارض . اما في الخليج وفي الجهة العجمية منـه فهم آمنون . على انهم في السواحل العربية لا يطمئنون كل الاطمئنان رغم ما عقدوه من المعاهدات مــع امراء العرب ولولا ابن سعود وهو اول المتعاهدين واكبرهم لما أمنوا التعديات البرية والبحرية . لست مبالغاً اذا قلت قد يكون ابن سعود حامي بريطانيا في الخليج ، لانه يستطيع اذا شاء ان يخرج وكلاءها من الاساكل ويقضي على سياستها في السواحل العربيـة الشرقية فيستولي عليها . ما ضره اذن لو قال لانكلترا في سبيل مصلحته خصوصاً ومصلحة العرب عموماً كلمة حق صريحة ؟

قلت مجيباً على سؤاله : قل للانكليز يا مولاي ان قد حان الوقت لواحد من امرين . اما ان يساعدوا امراء العرب مساعــدة حقيقية فيحملوهم على عقد اجتماع عربي عام للنظر في الوحدة العربيـــة او في تأسيس حلف عربي ، واما ان يرفعوا يدهم من التدخلات كلها فينهض امراء العرب انفسهم لهذا الامر ويجتمعون دون وساطة اجنبية .

فأكد لي السلطان ان الانكليز لا يعملون لا هذا ولا ذاك . ولو سعوا سعياً اكيداً ليجمعوا امراء العرب ويوفقوا بين المتعادين منهم لا يفلحون ، بل يزيدون الخرق اتساعاً . ثم ضرب مثلاً على ذلك فأطلعني على طريقتهم : لنفرض ان شيخين من مشايخ العرب مختلفان على الحدود بينهما . والخلاف بسيط يمكن حسمه بوساطة شخص ثالث من البلاد . فان الانكليز يتدخلون في الامر فيعقده مأمورهم او وكيلهم السياسي فيصبح السلم بين المتخاصمين مستحيلاً . اما الحق في ذلك فليس على المأمور الانكليزي وحده . كلا ، العرب انفسهم يشاركون في الذنب . كل من الشيخين المتخاصمين يقول في نفسه : لا بد ان يتحزب المأمور الانكليزي اما لي واما عليّ . وهذا أكيد . هي عـــادة الانكليز في

تدخلاتهم كلها . فيضاعف العربي مطالبه عشرة اضعاف ، ولسان حاله يقول : اذا كان الانكليز معي فيعطوني حقي وزيادة ، واذا كانوا عليّ فيعطوني في الاقل بعض ما اطلبه ، ولا بد ان يكون فيه شيء من حقي .

ثم قال السلطان : هذه طريقة العرب يا حضرة الاستاذ ، وهذه طريقة « الانكليز » . عسى ان الله يعلمنا فنعقل ويؤدبهم فيعدلوا ... هات القهوة .

مؤتمر العقير

بلاد الغربة – خباء الكآبة والغم – الرفيق الحزين – الاستاذ المزين– الشوق والحنين في الفسطاط – الشوق والحنين في المضارب–السمر– اشعار نبطية – « الله يغربل الانكليز » – وصول المندوب السامي – اول جلسة من جلسات مؤتمر العقير – قنبـلة السلطان ونكتته – الحكومة والعشائر – الحكومة الضعيفة تسترضيهم والحكومة القوية تضربهم–اغمدوا السيف فيطغون، اشهروا السيف فيرتدعون–رجال الاقتصاد في المؤتمر – النقابة العمومية الشرقية – شركـة عبادان – امتياز الحسا – الميجر فرنك هومس – فهد الهذال– مندوب حكومة العراق – السر برسي كوكس يوكل بي السلطان .

مللنا الاقامة في العقير ونحن ننتظر المندوب السامي . وما العقير غير حوش من الخليج والنفود ، شمسها في شهر كانون محرقة، ورطوبة هوائها تنهك حتى الابل . ولها مزية اخرى يعدها العرب من الآفات ، العرب الذين لا يقيمون زمناً في مكان وهم يستأنسون كثيراً بالاسفار . فقد قالوا ان العقير هي الغربة بعينها ، تبعدهم عن الاوطان،عن الاهل والعيال ، ساد في المضارب روح السآمة والكآبة فكان اشد وطأة من الرطوبة في الهواء .

سمعت حتى العبيد يشكون . وكانت خيمتي ، وانا الوحيـد بين هؤلاء الناس البعيد حقاً عن الاوطان، البعيد عن الاهل والخلان واحق منهم لذلك بالشكوى – كانت خيمتي خبـاء الكآبة والغم . فسألت رفيقي الاديب السيد هاشم عن السبب في بؤس حاله :

– هل هناك غير الهواء والوحشة والانكليز ؟

– لا شيء من ذلك يا استاذ .

— وهل هو مما يستطاع مقاومته ؟ هل يمكنني ان اقوم بشيء يخفف وطأته عليك ؟

— لو كنت ياعزيزي الاستاذ مزيناً، وكان عندك مقص وكنت ترغب في خدمتي لفعلت .

ففتحت حقيبتي وقلت : ها المقص وها انا ذا . اتبغي ان اقص شعرك ؟

— لا يا استاذ . بل هذه اللحية التي تطاولت عليّ، أفسدت عيشي، سودت ايامي .

ولكننا لم نفز بتبييض شيء منها ، اي من ايامه . فبعد ان شذبت لحيته وجعلتها لحية نجدية قصـــيرة مستديرة ، قال السيد الحزين : الله يا استاذ ما اضعف الانسان وما اسخف آراءه ساعة يستولي الحزن عليه . حاولت ان اخفي حزني في لحيتي فما نجحت . اضحكتني يامزين — زين الله حالك — ولكنك لم تفرج غمي . لله در من قال : لا تخف ما فعلت بك الاشواق . وكأنه لمس وتراً فيّ ، شدته الى حد الأنين يد الهجر والنوى ، فأنّ ولسان حالي يقول : واشرح هواك فكلنا عشاق.

— كان لي امرأة يا حضرة الاستاذ بارعة جميـــلة ، حسنة الخلق ، لطيفة الذوق ، شديدة الهيام ، وكانت وحيـــدة قلبي وبيتي . متعني الزمان بها سنتين ثم جاء القواد الموت اختطفها من بين يدي . فهجرت الكويت وجئت نجد ابغي علاجاً في البعد والنسيان . ولكن العقير تعيد اليّ ألم الذكرى . ادنتني العقير من الكويت والاحزان . . . لله ما اضعف الانسان ... يا هويدي (١) هات القهوة (٢) .

(١) هويدي تصغير عبد الهادي .

(٢) في نجد يسكنون فاء الاسم ويحركون العين اذا كانت ساكنة ، او بالحري

ولما كنا ذات ليلة في مجلس السلطان جاء النجاب بالبريـــد ،وفيه كتب لرجال في معيته فوزعت عليهم . ثم شرع عظمته يقرأ كتبه والكاتب جالس عند قدميه فيطرحها اليه سثماً ،حتى وصل الى كتاب عرفه قبل ان يفضه ، فاربدّ جبينه وهو يطالعه . ثم مال وجهه الي وقال . هو من الاهل ، وهم يشكون البعد والهجر . منذ اربعة اشهر « حنّا » في الحسا ، وفينا مثلما فيهم من الشوق والحنين ... ما كنا نبطىء بالرجوع لولا المندوب السامي وهو صديقنا . انا احب السر برسي كوكس واحترمه ، ولكنه ابطأ ، ابطأ جداً . وهذا الهواء الردي ، هواء العقير ، وهذه الوحشة التي لولا انسك يا استاذ لما كانت تطاق . « حنّا » اهل العارض لا نتحمل هواء الساحل ، سئمنا الاقامة هنا ، مرضنا . وسنرجع اذا كان لا يصل السر برسي كوكس غداً ، اي بالله نرجع ثم كلم الحاجب في الباب : هات اقهوه . فردد الحاجب : اقهُوَه . واجاب راعي المعاميل عند النار : اي والله اقهوه .

بينا كنا عائدين تلك الليلة الى الخباء مررنا بحلقة من حلقات الربع حول نار مشبوبة يؤمها كل من يبغي القهوة من الخدم والسادة. فكانت حافلة عامرة تباري النار تأججاً واللهيب حنيناً ،فافسحوا لنا مكاناً وهم يواصلون قص القصص ويروون من الاشعار ما يفصح عما فيهـــم من الشوق والحنين ، فيردد الجلوس اخر كلمة من كل بيت وفيهم طرب يمازجه الغم :

تابع شرح صفحة ٦٤

ينقلون حركة الفاء الى العين ، فلا يقولون قهوة او شجرة او الدهناء بل اقهُوَه واشجرَه والدَهنا .

يا ليتني حرته[1] احمل ذهابه وماه . الجلوس : وماه

يا ليتني مهرته وزّبنه [2]عن عداه . » : عداه

يا ليتني محبسَه واكل معه من عشاه. » : عشاه

يا ليتني نعلته واطا معه ما وطاه . » : وطاه

ـ زين بالله زين !

ولكنها ابيات قيلت في مدح ابن رشيد . فقال راويها : ولكنها لسان حال صديق لي بالمنفوحه .

يا جالي الحب ما تجلاه تجلي الموده وتفطن لي [3]. الجلوس :تفطن لي

طواني الحب طوي اللحا [4] عجزتْ عراويه تنحلّي. الجلوس تنحلي

ـ زين بالله زين .

ـ صب يا دْحيم .

فقال دحيم وهو يصب القهوة: حنّا العرب لا نصبر على البعد والجفاء فقال اخر شارحاً مفصحاً : يقول دحيم ، اننا لا نصبر على البعد عن الحريم . نبغي النساء أبَدْ ، دائماً . والشيوخ اشدنا شوقاً اليوم . الله يغربل الانكليز [5] .

وقد استجاب الله سبحانه طلبة الاعرابي فغربل فريقاً منهم في اليوم

---

(١) حرته اي ناقته الحرة النجيبة .

(٢) زبنه في اصطلاحهم أبعده او حماه .

(٣) يا مبعد الحب والمودة الا تفطن لي وتبعدني اي تدنيني منهما .

(٤) اللحا قشر شجرة الطلح . ولكي يستقيم الوزن والقافية يجب ان تلفظ اللحا على القاعدة النجدية بتسكين اللامين اي الْلْحا . وهذه الابيات من الشعر النبطي الذي يتغنى به اهل نجد .

(٥) قلما يسبون في نجد ولكن اذا اغتاظوا من احد، يقولون : الله يغربله، اي يغربل الشر منه ، واذا اشتد غيظهم وسخطهم يقولون : سلط الله عليه ،

التالي وقذف ما في الغربال الى شاطىء العقير . اجل وصل المندوب وحاشيته مساء، فبادر الخدم اليهم بالخيل ولاقاهم السلطان على الرصيف عند القصر . ثم عادوا كلهم راكبين ، فترجلوا عند فسطاط الاستقبال وكان قد انير بنور قنديل « اللوكس » ويدعى هناك بالكهرباء .

جلس المندوب السامي الى شمال السلطان [1] والى جانبه كاتب سره والوكيل السياسي في الكويت والميجر دكسون مأمور الارتباط في البحرين وجلس الشيخ فهد الهذال بيني وبين عظمته الى اليمين .

اعتذر المندوب السامي لانه ابطأ ، فقبل السلطان العذر ، وشرع يفصح عما كان يتقد في صدره وهو ينظر اليه غير مكترث بسواه . فجاءت الكلمة الاولى قنبلة زعزعت المكان . ـ انا لا اخشى الا الرجل الذي لا شرف له ولا دين .

ثم قال لا ندري يا حضرة المندوب ما خفي من المقاصد ولكننا نرجو منها الخير ومما نعلمه علم اليقين ان العشائر ، خصوصا عشائر العراق ، لا ترتاح الى حكومة قوية شديدة الساعد ، بل لا تبغيها .لان الحكومة اذا كانت قوية تضربهم ،تؤدبهم ، فيتأدبون . اما اذا كانت ضعيفة فتسترضيهم كما هي الحال اليوم ... العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون الا بالسيف . والا فهم يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد الى مهاوي الخراب ... اشهروا السيف يرتدعوا ، يتأدبوا . اغمدوا السيف يقتتلوا وينهبوا . ويتقاضوكم مع ذلك الخوّة.

فاه عظمته بهذه الكلمات مولياً وجهه المندوب السامي وظهر فهد الهذال . وكان الشوحط الطويل بيده يساعد بالافصاح والتمكين ،

---

(١) كان المندوب اول من دخل الى الفسطاط واظنه اختار المكان تأدباً ، اما الشيخ فهد فلا اظن ان عظمة السلطان اجلسه الى اليمين .

فرابني بـــل راعني منه هذا التصريح ، فقلت في نفسي : سامح الله عبد العزيز . قد اخطأ في استرساله الى غضبه . ولكنه وهو السياسي المحنّك اراد ان يفهم ابن الهذال بانه صريح مع الانكليز كما هو صريح مع العرب ، وانه في الحق لا يهاب بشراً . على ان المجلس ادلهمّ هنيهة من كلامه فجاء هو على عادته ، كما قلت سابقاً ، يجلوه بكلمة لطيفة فأزال الانقباض الذي استولى على النفوس . لانه في غمزة قناة الهذال اهانة حكومة الانتداب التي تدفع له مشاهرة ليحفظ الامن في البادية بين العراق والشام .

— اغمدوا السيف يقتتلو وينهبوا .

ثم مال بوجهه الى الشيخ فهد وقال مبتسماً : اليس كذلك يافهد. « حنّا » نعرف بعضنا . فضحك كل من كان في المجلس سوى شيخ العمارات الذي كان يحدق نظره في السجادة ، ثم يرفعه خلسة الى المندوب السامي كأنه يقول : لا بارك الله بساعة جئت فيها معك .

هذه اول جلسة وان كانت غير رسمية في مؤتمر العقير ، تبعتهـــا جلسات سرية بين السلطان والمندوب ، وجلسات عمومية حضرها رئيس وفد العراق ووكيل بريطانيا السياسي في الكويت والشيخ فهد الهذال. وكان الكتّاب والمترجمون — الميجر دكسون من الجهة الانكليزية والدكتور عبدالله من الجهة العربية . والاخصائيون ايضاً من البدو الخبراء بارض الشمال وحدودها واماكن الماء فيها ، يؤمون من حين الى حين خيمتي الصغيرة . فرأيت ان رغبة الفريقين بالسلم رغبة حقيقية ، وان السعي مع ما تخلله من وعيد وتهديد ظل متواصلاً حتى النهاية ، فكللت في اليوم الخامس اعمال المؤتمر بالنجاح [1] .

---

(١) راجع تفاصيل مؤتمر العقير في تاريخ نجد الحديث .

ولم يُحرم مؤتمر العقير غير ممثلي الصحافة . اما رجال الاقتصاد و طالبوا الامتيازات ، الذين يحومون على كل مؤتمر يعقد في اوروبا في هذه الايام ، فقد شرف بعضهم العقير وكان البعض ، وهم على الشاطىء العجمي من الخليج ، يتقربون من ذوي الامر فيه باسم الصداقة للعرب — والبترول . فقد علمت ان السير آرنلد ولسون رئيس شركة الزيت الانكليزية الفارسية في عبّادان كتب الى صديق له في المؤتمر يسأله مفاوضة السلطان عبد العزيز بخصوص امتياز في الحسا .

ولكن الذي كان قد باشر المفاوضة فجاء بنفسه ونصب خيمته بالقرب من فسطاط السلطان هو الميجر فرانك هومس وكيل النقابة العمومية الشرقية بلندن . كنت قد سمعت بالميجر في عدن وعسير ، فما استغربت امره عندما اجتمعت به على رمل العقير . هو في العقد الخامس من العمر ، وفي طور الشباب همة ونشاطاً . فقد ساح في تهامة وفي الاحساء بالرغم عن انه لا يعرف كلمة من اللغة العربية ، وهو يبحث عن الزيت وينشد مثل شركة عبادان الامتيازات .

على ان الفرق بينه وبين تلك الشركة هو ان حكومة بريطانيا تعضدها لانها تملك سبعين بالمئة من اسهمها ، وتقاوم كل شركة سواها تبغي امتيازاً في الشطر الشرقي من البلاد العربية . قال لي الميجر هومس ذات يوم في العقير : لا خصم لنا غير حكومتنا . ولكن لا دخل لنا في السياسة ، نحن تجار ننفع وننتفع .

لذلك منحه السلطان عبد العزيز امتياز الحسا ، بالرغم عن مقاومة الحكومة البريطانية التي كانت تفضل ان تمنحه لشركة عبادان . ثم شدّ الميجر اطنابه في الكويت وفي البحرين حتى وفي العراق ، فاذا جاء فوزه مقابلاً لجزء من سعيه ، وكانت شركته بعيدة دائماً عن

السياسة ، قد يصبح اشهر من نالوا امتيازات في البلاد العربية واحبهم الى العرب .

وقف في صباح اليوم السادس مندوبو المؤتمر للمصورين فينا وقفة الرضى والامتنان . وكان الميجر هومس مع الفريقين ، مَن تصوروا ومن صوروا . ثم انتثر العقد ورددت كلمات الوداع . فعاد كل في سبيله يثني على رجل المؤتمر ، بل رجل نجد الكبير السلطان عبد العزيز . حتى ان الشيخ فهداً كان صباح ذاك اليوم من الراضين ، المسرورين ، المادحين . سأله السلطان عند الوداع : هل من حاجة نقضيها لكم ؟ فاجاب : نعم يلزمنا بعض العمانيات (١) . فقال عظمته : ارسل احد رجالك معنا نرسلها اليك من الحسا . ففعل . ثم جاءني يعتذر ، والرضى ابو العطف والاتضاع ، لانه لم يرد زيارتي فقال : ان اشغال المؤتمر حالت دون ذلك ، وامر كاتب سره ان يدون اسمي في دفتره ، دفتر المقربين المغبوطين . ثم دعاني بورك فيه الى ديرته في الشمال قائلاً : سنقوم هناك بواجبكم ان شاء الله .

اما مندوب حكومة العراق فامره يحزن . كان قد مرض في الطريق الى العُقير فوصل الينا ورديفته الحمى . وكان اثناء المؤتمر يشكو كل شيء ـ ثُقل الهواء ، وملوحة الماء ، ووحشة البيداء ، وظلم السماء ، ويقبّل مع ذلك يد السلطان عبد العزيز . اظنه كان يجهل ان اهل نجد لا يقبلون يد السلطان ، وان تقبيل الايدي هو مستنكر عندهم . سألني عند الوداع قائلاً : أصحيح انك مسافر مع السلطان الى نجد ؟ فقلت : نعم ، تعال معنا . فقال : وان اعطيتني ثقل رمال البادية ذهباً لا اخطو خطوة اليها . ها هنا ـ واشار الى البحر ـ خلاصي .

---

(١) النوق العمانيات من عُمان وهي انجب الابل واعزها .

البحر يوصلني الى بغداد . وكان في كلماته وفي تنهداتـه يمثل العاشق المشتاق ، البعيد عن جزر الواق الواق . مسكين المتمدن الذي لا يستطيع ان يستغني عن المدنية ولو يوماً واحداً .

اما الانكليز في المؤتمر فما سمعتهم مرة يشكون ، شأنهم في كل مكان. فهم يقتبلون كل حال حسنت او ساءت ، عاملين عملهم جادين ، راضين بقسمتهم الوقتية ساكتين صابرين . ودّعوني ولسان حال كل منهم يقول : هنيئاً لك ، يا ليتني مسافر معك !

ولكن المندوب السامي السر برسي كوكس قال لي ساعة الوداع : وهلا سافرت الى الربع الخالي . فقلت ضاحكاً: كأنك تبغي هلاكي . ثم فاه وهو يودع السلطان بكلمة انستني الاولى لان فيها منحت ضمناً حق الحماية الانكليزية . قال باللغة العربية مخاطباً السلطان ومشيراً الي: هو بذمتك . فاجاب السلطان بكلمة ألطف منها واجمل . قال ويده على كتفي : الاستاذ نجدي الآن ، هو منا .

العدل اساس الملك

عدل ابن سعود – الشرع – البسط في المذهب الوهابي – عرب البادية – الحطاب – « لولا الشيوخ والله لادبته » – الامن في نجد – من القطيف الى ابها ومن وادي الدواسر الى وادي السرحان لا يسأل المسافر من اين والى اين ؟ – طريق الحسا في عهد الاتراك – «الخوة» كل خمسة اميال – عبدالله بن جلوي – عمر الاحساء يؤدب ابنه – « اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا » – لصوص بني مرة – ثمانية رؤوس تقطع في ساحة الهفوف – التدخين في نجد – الصلاة – من يبسطون ممن يدخنون وممن لا يصلون في المسجد .

العدل اساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يرعب ويخيف . وقد شاهدت من مظهريه في بلاد نجد ما لم اشاهده في البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلاداً تتمثل فيها هذه الحكمة « العدل اساس الملك » ذاك التمثل الصحيح الشامل ، ذاك التمثل المعجب المخيف معاً . عدل ابن سعود ! كلمة تسمعها في البحر وفي البر وفي طريقك الى نجد قبل ان تصل اليها . كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالي الى الجوف .

وما عدل ابن سعود غير الشرع – غير عدل النبي . اضف اليه قسوة في بعض الاحكام الاجتماعية اشتهر بها المذهب الوهابي . فمن يدخن مثلاً يُبسط [1] وكذلك من لا يصلي . اما احكام الشرع فمعروفة الا انها تنفذ في نجد بلا تردد ولا محاباة ، ولا مرافعات لو لبيات

(١) البسط عندهم هو ان يطرح الرجل الى الارض ويضرب بالرطب من عسيب النخل .

طويلات . حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً او غنياً . كل الاعمال الاثيمة عند الحاكم سواء ، وكل الرؤوس سواء عند السياف . وكم من يمين في اول عهد هذا السلطان الكبير قطعت لسرقة صغيرة . وكم من رؤوس طاحت الى الارض لذنب يخففه في غير ذلك الحال وذلك المكان عذر وندامة . ان مثل هذا العدل ليثير خواطر المتمدنين ويغضب من عاشوا في ظل الاحكام المدنية التي لا تخلو من الرأفة والحنان ، وان كان العدل لا يسلم دائماً فيها .

شاهدت بسط رجل في الرياض لاغتصابه فتاة صغيرة . بسطه العبيد على بطنه وامسك عبدان منهم يديه ورجليه وسقط العبدان الآخران بالعسيب الاخضر على ظهره يعدون الضربات الى ان عدوا الخمسين او الستين . نفرت من ذا المشهد نفسي ، وسئمت العيش بعد ذلك اياماً . ولكن من يعرف عرب البادية ويقيم بينهم ويخبرهم يرى وجوب مثل هذه القسوة في تأديبهم وضبط امورهم .

اما المظهر الجميل في عدل ابن سعود فاليك مثلاً صغيراً منه . كنا في العقير نحتاج الى الكثير من الحطب ، وكان يجيء البدو باحمال منه يبيعونها الى رؤساء الخدم باسعار غالية لقلة الحطب في ذاك المكان ولعلمهم بحاجة الشيوخ وضيوفه الانكليز اليه .

وقف يوماً احد هؤلاء الحطابين ومعه اربعة جمال محملة . ساومه قيم السلطان عليها ، فطلب الجمال روبيتين ثمن كل حمل ، وسعره الاعتيادي نصف روبية . نزل الجمال الى روبية ونصف . رفض القيم شراءها . ساق الجمال جماله . ناداه القيم ودفع له روبية فأبى . فقال القيم وكان الجمال قد ولى باجماله : بدُوِي قواد . لولا الشيوخ والله لأدبته .

ولو كنا في معسكر تركي او اوروبي وكان الجيش بحاجة الى الحطب فهل تظن انهم كانوا يعاملون هذا الحطاب مثل هذه المعاملة ؟ بل كانوا يكرهونه على البيع بما يريدون ثم يسخرونه . لولا الشيوخ لفعل الخدامون بالبدو الحطابين مثل هذه الفعلات . ولكن حق البدو يعطي لهم — وحقهم ان يبيعوا ما يملكون بما يشاؤون ويستطيعون . اما حق ابن سعود فيؤخذ منهم بالعدل ، وان اقتضى الامر بسيف العدل البتار .

اذا كان العدل اساس الملك فالامن اول مظهر من مظاهر العدل . وفي نجد اليوم من الامن ما لا تجده في بلادنا او في اي بلاد متمدنة . لا يظنني القارىء مبالغاً بما اقول . ولست على ما اقول مستشهداً بنفسي ، مع ان رحلتي النجدية استمرت خمسة اشهر ، قطعت في اثنائها الدهناء مرتين ، جنوباً في طريقي من الحسا الى الرياض ، وشمالاً في طريقي من القصيم الى الكويت ، وكانت حقائبي وفيها مالي مكسرة الاقفال مفتوحة وهي مع الحملة بعيدة مني النهار كله ، وكان في خدمتي اناس من البدو ، فلم افقد مع ذلك شيئاً من حوائجي ولا ورقة من اوراقي . الا اني لا اقدم نفسي حجة لاثبات ما اقول عن الامن في نجد لاني كنت اسافر بطريقة ممتازة مصحوباً بعشرة الى خمسة عشر رجلاً من رجال السلطان .

ولكن الامن في نجد لا يحتاج الى رحلتي مثالاً واثباتاً . ان له اكبر دليل واقطع حجة في اهل البلاد انفسهم ، المسافرين من قطر الى قطر ، وفي القوافل التي تسير اربعين يوماً في ملك ابن سعود من طرف الى طرف ، من القطيف مثلاً الى ابها ، او من وادي الدواسر الى وادي السرحان ، دون ان يتعرض لها احد من البدو او الحضر ، دون

ان تسأل من اين والى اين .

قدمت مثلًا صغيراً على العدل . وهاك مثلاً صغيراً على الامن في نجد اليوم . كانت الطرق في الاحساء في عهد الاتراك لا تعبر الا بقوة عسكرية ، او بدفع « الخوة » . وكانت الطريق بين العُقير والحسا ، وهي طريق التجارة الى نجد الاسفل ، اكثرها واشدها اخطاراً. فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول الى الهفوف — مسافة اربعين ميلًا — يضطر ان يدفع « الخوة » كلما اجتاز خمسة او عشرة اميال من هذه الطريق المخيفة ، طريق التجار والاموال . جاءها العجمان من الجنوب ، وبنو مرّة من الربع الخالي ، والمناصير من قَطَر ومادونها ، وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت ، وجاء من داخل البلاد ، من وراء الدهناء ، الدواسر الاشاوس ، فحاموا كلهم على هذه الطريق وربطوها ، وقطعوها ، وتقاسموا اموال قوافلها .

كان يجيء التاجر من البحرين مثلاً فيدفع قبل ان يطأ برجله العقير « خوة » للعجمان . ومن العقير الى النخل خمسة اميال وخمسون ريالاً « خوة » للمناصير . ومن النخل الى ام الذر خمسة اميال وخمسون ريالا « خوة » لبني مرة ومن ام الذر الى العلاة خمسون ريالا « خوة » لبني هاجر . ومن العلاة الى ... الخ واذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي شيء في كيسه ، فمن المؤكد ان احماله لا تصل كلها الى الحسا . وكان اذا خرج عسكر الترك لتأديب احد من هؤلاء العشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم ، ويأخذون خيلهم وثيابهم ،ويرجعونهم الى الحساحفاة عراة . ثم يجيء البدوي منهم راكباً حصان الجندي التركي ليبيطره على مرأى من السلطة المدنية .

هذه هي حال الاحساء قبل ان سقطت في يد ابن سعود . امـا

اليوم — فقد مررنا في النفود بجمل بارك ، رازح تحت حمله . فسألت عن صاحبه فقيل لي انه سار في طريقه وسيرجع بعد ان يصل الى البلد بجمل اخر يحمل البضاعة . وقد يموت الجمل الرازح ويبقى حمله على قارعة الطريق عشرة ايام فيعود صاحبه فيجده ، وما مسته يد بشرية ، كما تركه في مكانه . كيف تمكن ابن سعود من اقامـــة مثل هذا الامن وتوطيده في بلاده ؟ بامرين : اولهما الشرع وثانيهما تنفيذ احكام الشرع تنفيذاً لا يعرف التردد ولا التمييز ، ولا الرأفة .

ليس السلطان وحده في هذا الامر الخطير . فان امراءه كلهم يأخذون عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الامراء رجل مشهور يحكم الحسا . هو اكبرهم همة ، واشدهـم تعصباً للعدل ، يجلس في كرسي القضاء وحده . فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معـه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب وقسوته قسوة البدو . يأمر بالقطع وبالنطع ولا يبالي . هو عبدالله بن جُلوي [1] امير الحسا وابن عم السلطان عبد العزيز . ان اسم عبدالله ليرعب الناس اليوم ويروع منهم المجرمين . ان له صدى يقوم مقام الشرع في كل الاحساء ، من اطراف القطيف شمالا الى وادي جبرين جنوباً . انه ليخيف اكبر البدو ، واكثرهم استهتاراً . بل هو اسم تخوف الامهات به اطفالها .

ان لعدل عبدالله بن جلوي عيناً واحدة لا ترى غير المذنب ولا ترى في ذنبه غير ما يستوجب التأديب في الحال . وهو اسرع في تنفيذ احكامه واشد من ابن عمه السلطان عبد العزيز . ان ساحـــة الهفوف لساحة الدم ، ساحة القطع والنطع . خذوه الى الساحة ! وبعد هنيهة

---

(١) اصله جلوي من جـــلا يجلو ولكنهم في نجد يسكنون فاء الاسم ومن ذلك ايضاً قولهم : ابدُوي اي بدوي .

يلمع سيف السياف في شمس الضحى فتقع اليد او الرجل او الرأس في حجر القضاء ويهز العدل رأسه استحساناً .

جاء عبدالله ذات يوم رجل يشكو ولداً ضربـــه وشتمه . فسأل عبدالله : من الولد ؟ فقال الرجل : لا اعرف اسمه .فقال عبدالله: وهل تعرفه اذا عاينته؟ فاجاب الرجل بالايجاب . فامر الاميران تجمع عنده اولاد ذاك الحي من البلد . فاحضروهم كلهم وجاء الشاكي فنظر اليهم واشار الى غريمـــه ، فهمس احد الحضور في اذنه : هو ابن الامير . فجمجم الرجل بعض كلمات اراد بها الاعتذار والعدول ، فرده الامير ، وسأل الولد فأقر بذنبه . فأمر العبيد ان يبسطوه امامه وان يقدموا للشاكي عسيباً اخضر من النخل . فتردد العبيد واحجم الرجل. فاخذ الامير القضيب بيده وشرع يضرب ابنه ويقـول : اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا .

جاء ذات يوم الى القصر في الرياض بضعة رجال من بني مرة ، اشد القبائل في الجنوب توحشاً يطلبون عيشاً وكسوة . فكان لهم من السلطان ما يبغون : ثم ارتحلوا شرقاً الى الحسا فمروا في طريقهـم ببعض الاباعر ترعى فساقوها امامهم فشكاهم اصحابها الى السلطان في الرياض ، فبعث السلطان بنجاب يحمل الخبر الى الاميرعبدالله في الحسا وصل النجاب قبل ان يصل عربان بني مرة ، فتحركت اسباب العدل عند الامير بالسرعة التي اشتهر بها . ركب اربعمئة من رجاله وراحوا منقسمين اربعة اقسام ، شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، يفتشون عن عربان بني مرة اللصوص ، وما مر اربع وعشرون ساعة حتى جاءوا بهم وبالبعارين المسروقة الى الهفوف ، فاوقفوهم امام ذاك العربي الرومـاني ، العربي شرفـاً الروماني عدلا ، وكان سؤال ، وكان

جواب ، وكانت الكلمة : الى الساحة !

هناك امام الامير والجمع المحتشد يشتغل السياف ويشتغل معاونه والطريقة في الاعدام بسيطة سريعة مدهشة. فيها دقة نظر وفيها مهارة. انهم يركعون المذنب على ركبتيه ، ثم يرقص امامه المعاون ليلهيه عن السيف الآخر المرفوع فوق رأسه ، فيكزه اولاً السيّاف وكزة شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ ، فيتحرك الرأس الى الامام ، فيتقلص عصب الرقبة ، فيضربها اذ ذاك ضربة — ضربة واحدة ؟ — يطيح منها الرأس الى الارض . دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالنطع ، فيتحدث بها الركبان في نواحي البلاد كلها .

وفي ذاك اليوم الرهيب لمع سيف السياف لمعات ثمانياً في ساحة الهفوف ، وفي شمس الضحى ، رقصت على الارض ثمانية رؤوس من بني مرة ... يا راعي البعارين ، ضاع لنا بعير فهل عاينته في الطريق ...؟ هوذا يا خويي البعير تعال خذه . . العدل اساس الملك وسياجه . فان القلاع التي بناها الترك في الطريق الى الحسا هي اليوم مهجورة متهدمة ، والقوافل تسير ثمانمئة ميل شرقاً وغرباً وثمانمئة ميل جنوباً وشمالا في ملك ابن سعود وهي تدعو له بطول العمر وتشكر الله .

قلت انهم يبسطون من يدخن في نجد ، ويبسطون كذلك من لا يصلّي . وللكلمتين شرح توجبه الحقيقة والانصاف ، لان الناس في ما يسمعون من عجيب الامور ومنكرها يبالغون ، ولا يهمهم من الحقيقة غير ما يثبت منها المبالغات .

التدخين ممنوع في نجد بل في ملك ابن سعود كله ، ولا احد يدخن علناً او في الاسواق، لا في الحسا ولا في العارض ولا في القصيم .

ولكنهم في الحسا وفي القصيم يدخنون في بيوتهم، والمشايخ يتساهلون وقد رأيت في الرياض من يدخن سراً حتى في حضور اقرب الناس الى السلطان. ذلك لانهم لا يرون في الدخان ما يراه المتعصبون من العلماء. اما السلطان فهو يحب الروائح الطيبة ويشمئز من رائحة الدخان. وما كان ليزورني كل ليلة على ما اظن لو كنت ادخن يوم كنت ضيفه في القصر بالرياض .

حدثنا المستر فلبي في كتابه «قلب البلاد العربية » قال : كنت انا ورفيقي ندخن ذات ليلة (وكانا مثلي ضيفين في القصر) اذ دخل علينا عبد يعلمنا بقدوم الشيوخ . وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرة على الديوان، فخبأناها مسرعين وفتحنا الشبابيك كلها . الا انه عندما دخل السلطان كان الدخان لا يزال منتشراً في الغرفة . فجلس متجاهلاً ، وكان لطيفاً على عادته. ولكن احد العبيد جاء توا بالمجمرة وفيها الطيب فقدمها لسموه ودار علينا بها مراراً ثم تركها على السجادة وسط القاعة تطهيراً للهواء .

تجاهل السلطان مع ان دخان الغلايين اكره شيء لديه ، وكان لطيفاً على عادته . ولكنها كانت اول زيارة منه لضيوفه في منزلهم ، وآخر زيارة. هناك مثلاً اخر من تلطفه وتساهله. في الرياض حي يسكنه العلماء. وللعلماء حاسة شم تخترق الجدران فتعرف ما وراءها من دخان، وتميز بين الحلال منه والحرام . لذلك لا يجرأ احد في ذاك الحي ان يشعل سيكارة لا سراً ولا في غرفة مظلمة تحت الارض . واذا خاطر بنفسه واستهتر، فاكتشف امره ،يحاكم امام الشيخ ،وعند اثبات الجرم، بعد استماع الشهود يبسط في الحال لا محالة ، فـ « يطقه » — يجلده — العبيد من اربعين الى ثمانين جلدة حسب خطورة الذنب فيه، وقدسمعت

السلطان عبد العزيز يقول لرجل من اخصائه كان يبحث يومئذ عن بيت لينقل اليه : في محلة الشيخ (اي في حي العلماء المذكور) بيت كبير ولكنك تعلم انهم هناك يواظبون على الصلاة ويشددون في الاحكام فتضطر ان تصلي في المسجد .

ان في كل مسجد بالرياض كما قيل لي جريدة باسماء الذين يصلون فيه ، يقرأها الشيخ كل يوم صباح مساء . فاذا كان احد غائباً يزوره وفد من الاخوان في بيته . قد يكون مريضاً فيعودونه ويؤاسون ، وقد يكون مستغرقــا في النوم فينبهونه وينصحون ، وقد يكون كسولاً فيحذرون . اما اذا تغيب عن الصلاة ثانية بلا سبب فيعظونه ويوبخون ، واذا كرر فعلته فيبسطونه لا محالة ، ويعملون في ظهره النخل او الخيزران .

هي حقيقة الوهابية في العارض ، بل في الرياض ، بل في حي خاص من احياء الرياض . وكلما بعدت من ذاك الحي ومن تلك المدينـة ، وكلما بعدت من العارض شمالا او شرقاً ، تبعد من الغلو في الدين ـ دين التوحيد ـ ومن التعصب في تنفيذ احكامه الاجتماعية .

الاخوان

رسل الهول ورسل التوحيد – جنود ابن سعود – غلو من يدين بدين جديد – « انا خيّال التوحيد اخو من طاع الله » – الحروب النبوية – تساهل الفاتحين المسلمين – شجاعة الاخوان – هوستهم : هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ – آتون الايمان – نوار مثال من الاخوان – الزكرت – التدخين والغناء – نوار لا يصلي من اجل المريض الكافر – اهدده بالذبح – « الله يجيرنا واياكم من النار » – الاخوان ثلاثة اصناف : المجنون والمتعصب والمتساهل – فلاسفة في الشدة والفقر – قوة هائلة ينقصها ادارة ونظام – خطبة السلطان عبد العزيز وهو ينذر الاخوان .

من هم الاخوان ؟ من هم اولئك الوهابيون الذين يردد الناس في كل قطر من الاقطار العربية اسمهم مستعيذين بالله ؟ وقل من يعرف حقيقة حالهم ، ويدرك سر اشتهارهم . أهم رسل الهول والموت ، ام رسل دين لا يعرف غير الله والكتاب والسنة ، دين النبي محمد والصحابة ؟ اقول نعم جواباً على السؤالين .

الاخوان هم الفئة المحاربة ، الفئة المتعصبة ، الفئة المدّينة [١] جديداً في الوهابية . الاخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالامس من العرب الرحل ، من البدو الجاهلين ، فديّنوا اي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين . وهم في غلوهم يعتقدون ان من كان خارجاً عن مذهبهم ليس بمسلم ، فيشيرون الى ذلك في سلامهم بعضهم على

(١) دّين اي تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح اهل نجد .

بعض . — السلام عليكم يا لاخوان [1] حيا الله المسلمين . واذا سلم عليهم سني او شيعي فلا يردون السلام .

من الحقائق الناصعة في الاديان ونشأتها ان كل من دان بدين جديد او كان جديداً في الدين ، يأخذ منه الغلو مأخذاً يلتوي عنده العقل ، فيسترسل في ما يظنه فضيلة ولا يطيب له عيش الا بالتبشير والجهاد . قد كان كذلك المسيحيون الاولون ثم البروتستانتيون ، بل قد كانت شيع الاسلام كلها في بداءَتها نازعة الى السيف معتقدة ان الدين كل الدين في نشره في الناس حرباً او سلماً ، كرهاً او اقناعاً .

وها ان الاخوان في هذا الزمان يحملون البنادق والبيارق باسم الله ، فيحملون او كانوا يحملون على كل من لا يدّين من العرب وكأني بهم لا يرون خيراً في حياة لا اكراه فيها على التوحيد ، فينادي الاخ منهم ممتشقاً حسامه او رافعاً بندقيته : انا خيّال التوحيد اخو من طاع الله ، بيّن رأسك يا عدو الله ! انهم من هذا القبيل مثل رجال البروتستانت الاولين الذين حاربوا تشارلس ملك الانكليز . والسلطان عبد العزيز اشبه برجل تلك الثورة الكبير كرَموَيل .

على اننا لا نحتاج الى الامثال والمقارنات من تاريخ الغربيين وعندنا في تاريخ الاسلام مثل الوهابية الاعلى . أجل ان مثال « خيال التوحيد » انما هو النبي ، وان حروب الوهابية اليوم شبيهة من وجه خاص بالحروب النبوية . عودوا الى الله ايها المشركون ، عودوا الى النبي والسنة ، عودوا الى دين التوحيد . واذا كنتم لا تعودون فتكفرون بالطاغوت ولا تشركون احداً مع الله ، نحن الاخوان

---

(١) اهل نجد يدخلون في المناداة ال التعريف على الاسم فلا يقولون يا اخوان ويا امير مثلاً بل يا لاخوان ويا لامير .

عليكم . ان سيفنا بتار ويومنا عصيب [١] .

قد برهنوا على ذلك في مواقع عديدة واثبتوا جوابي على السؤال الاول ، فكانوا رسل الهول ورسل الموت في كل مكان سُمعت فيه « هوستهم » المشهورة : هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيهـا ؟ فلا الحجاز ينساهم ، ولا الكويت يذكرهم بالخير ، ولا العراق يحسن بهم الظن ، ولا الجوف ولا الجبل ولا القصيم يكبر في ساعة الوغى سواهم؛ ويردد خوفاً واعجاباً غير اسمهم . الاخوان ، زرعوا الهول في كل مكان . الاخوان يحاربون مستبسلين مستشهدين . روى الناس الموالون منهم والمعادون اخبار الشجاعة والبطولة التي اشتهروا بهـا . قالوا انهم شياطين الدين ، وقالوا انهم ابطال المسلمين . وما كانت البطولة بغير الايمان الحي والثبات في الجهاد . لولا ذلك ما كان الاخوان ، وما كان ملك ابن سعود . هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ وكل يبغيها. لذلك يحاربون وقلما ينهزمون . الجنة امامكم والنار وراءكم . فمن منهم يتقهقر ، ومن منهم يولي مدبراً ؟ هم شوكة ابن سعود ايام الحرب ، وهم ايام السلم الشوك في غصن الدين . يحملون سلم التوحيد بالعرض ويزعجون احيـاناً حتى سلطانهم العزيز . حدثت كثيرين منهم فما وجدت وراء اللسان غير قلب فيه اتون من الايمان ، فلا يهاب صاحبه الموت ولا يخاف غير الله . ولكنك تسألني : أمن روح هناك فيها شيء من الحنان ؟ ام من عقل فيه ذرة من البرهان .

هوذا نوّار اقدمه مثـلاً قوياً كريماً . وما نوّار غير راعي بعير

---

(١) بعد حروب النبي التي كان بعضها دفاعياً وبعضها تعزيزاً لدين التوحيد صار الفاتحون المسلمون يرضون من الامم التي يتغلبون عليها الخضوع لسلطتهم دون ان تغير دينها . وفي القرآن : لا اكراه في الدين.

اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر الى القصيم . كنا يومئذ على أهبة الرحيل فأراد الشاب ان يواخينا فقبلنا ، فخرج راكباً معنا من الرياض ، ونوار صاحب الذلول يمشي امامه او وراءه . وكان في بعض الاحايين عندما يتعب ، يثب الى الرحل رديفـــاً ، ثم يترجل مستعيذاً بالله . ذلك لان الشاب الذي اكراه نوار بعـــيره هو « ازْكرت »[١] يدخن ويغني والغناء في نجد اليوم محظور وفي بعض مدن العارض والقرى الجديدة ، اُلهجَر ، محرم مثل الدخان . اما الزكرت فكان يرفع عقيرته كلما خرجنا من قرية وصرنا في الفلاة ، فيتلو اذ ذاك نوار التعويذتين . وعندما رآه لاول مرة يشعل السبيل كاد يجن . كان ذلوله ماشياً الى جنب ذلولي وكان نوار وقتئذ رديفه فوثب فجأة الى الارض كأن ناراً اشعلت تحته وهو يردد بصوت عال: اعوذ برب الفلق من شر ما خلق ... اجرنا اللهم من النار ... اجرنا اللهم من النار والزكرت اثناء ذلك والربع كلهم يضحكون .

كان الاخ نوار مع ذلك لطيفاً وذا مروءة تشكر . فيعاون الخدم ، ويرعى الركائب عند المراح ، ويجمع الحطب ويشب النار ، ولا يأكل الا قليلاً . رافقنا هذا البشر الغريب ، آخانا كرهاً ، عشرة ايام وما من مرة سلم عليّ او كلمني او رد سلامي . مرضت اثناء السفر بالحمى فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي ونوار واقف اتفاقاً في الباب . فقلت مازحاً ، بل كنت اضايقه عمداً : يا نوار انا « مصخن » --

---

(١) ازكرت لفظة فارسية معناها من لا اهل له ولا عيال ، وتطلق في نجد على من يقضي ايامه في قصر السلطان او الامير او خادماً حول القصر ينتظر قسمة ربه . والزكرت كثير الأسفار عادة وكثير الأخبار ، مرن العقل والخلق، يحسن الخدمة ويحسن كذلك التهكم على الاخوان .

(مريض) اليوم . فمال بوجهه اليّ هاتفاً : والحمد لله ! كانت عصاي طوع يدي قرب السرير فرميته بها لما ظننته منه وقاحة بل وحشية ، فأصابت منه الرأس ولكنها لم تحرك اللسان بكلمة واحدة .

نهضت بعد ذلك وخاطبته وهو واقف عند النار : انت يا نوار رجل تقي ورع صدّيق وانا رفيقك في السفر – مريض – « خوياك مصخن » اليوم ، ونبغي الرحيل ولا رحيل مع مرض . فهلا ذكرتني في صلاتك وسألت الله لي الشفاء العاجل . فلم يجبني بكلمة . فقلت : أفلا تصلي من اجلي يا نوار ! ظل معرضاً عني ساكتاً . فقلت مصراً : انا « خوياك » ابغي منك ان تذكرني في صلاتك . هز الرجل رأسه متأففاً وبعد عني فتبعته وامسكته بعباءته ، واظنني كنت محموماً فزادني هذا الصدّ منه حرارة وغيظاً ، فقلت ولا مزاح : اسمع يا نوار انا اعلمْك انت واحد و « حنا » خمسة عشر وكلنا ندخن ونغني ، فاذا كنت لا تصلي من اجلي وتسأل الله لي الشفاء ، نذبحك والله مثلما ذبح مسفر هذه الشاة . اظن ان تهديدي راعه فحرك شفتيه بهذه الكلمات : الله يجيرنا واياك من النار . وهذا منتهي التساهل منه . لم يطلب لي الشفاء ، كلا ، بل اشركني من فضله بالاستجارة من النار ، نار الجحيم . كل الاخوان المديّنين جديداً هذا الرجل ، كلهم نوار .

على ان هناك فريقاً آخر منهم ، قد مر على تدينهم او تدين ابائهم حقب من الزمان ، فلطف فيهم سورة الايمان . هؤلاء يسلمون على غير الموحدين ، ومنهم من يدخن سراً ويغني اذ سار في الفلاة (١) ولا يلوم

(١) لا اظن احداً من العرب موحداً كان او مشركاً يستطيع ان يقاوم ما تحركه الفلوات في نفسه من حب الغناء او الحداء . كنا ذات ليلة حول النار نبحث في هذا الموضوع فروى احد الربع قصة عن السلطان عبد العزيز قال : خرجنا يوماً من الحسا مع الشيوخ وكنا عشرين من خاصة رجاله . فلما وصلنا الى الدهناء رفع

ابن سعود على تساهله مع الكفار الانكليز .

وهناك فريق ثالث اكثرهم من جبل شمر ، ديّنوا بعد سقوط حائل او قبله اما خوفاً واما ارتزاقاً . فهم يتساهلون تساهل السنى ، ولكن الاخ الجديد الاكيد يقول : انهم مدغلون .

قد كان في رجالي الذين عشت واياهم شهرين في السفر من العارض الى القصيم والكويت من الثلاثة الاخوان ، الاخ المجنون ، والاخ المتعصب تعصباً نسبياً معقولاً ، والاخ المتساهل . وكان في الصنف الاخير رجل ظريف ذكي الفؤاد يحسن النكتة والجواب ، يدخن دائماً ولا يستأثر بالسبيل بل كان يقدمه عند كل « تعميرة » الى رفقائه ، صارخاً بصوته العريض : دخنوا يا اخوان . بارك الله فيهم قد كانوا طيلة الطريق موضوع التهكم والضحك . اجل ، قد اضحكونا وفكهونا في ساعات الضجر الطويلة .

ويقسم الاخوان ايضاً الى ثلاثة اقسام : المطاوعة [1] والعلماء والمتعلمين المبتدئين . اما المطاوعة فهم في كل نجد يُعرفون من قيافتهم النسكية ، بل من خلق اطمارهم . اما العمامة البيضاء الشبيهة بالضمادة فان هي الا نصف ذراع من الخام يلفه المطوع فوق الغطرة على رأسه ويشكر الله . ثم يحمل عصا من الشوحط اذا كان كبيراً ، والا فقضيباً من الخيزران ويجوب البلاد في سبيل التوحيد . المطاوعة يعلّمون الناس الدين ، والعلماء يعلمون المطاوعة ، وكلهم يوم الجهاد « خيال

تابع شرح صفحة ٨٥

عبد العزيز العقال والغطرة — الكوفية — عن رأسه ووضعهما في الخرج وقال باسماً : لا اخوان معنا . من كان عنده حس فليسمعنا الان ، فرحنا نغني والله حتى قطعنا الدهناء وعبد العزيز مسرور طروب .

(١) جمع مطوّع اي المطوع في خدمة الله واصله متطوع فادغم.

التوحيد اخو من طاع الله » . وكلهم في ايام السلم فلاسفة في التقشف والقناعة ، في الشدة والصبر ، في التفقر والتقوى . ترى الاخ في الطريق حافياً لا يحمل غير عصاه ، ينفخ الهواء في اطماره فيكشف عراه ، وقد يكون مشى يومين او ثلاثة دون ان يذوق الخبز والتمر فتسأله بعد السلام : « وتسايف انت » (كيف انت) ؟ فيجيبك بصوت عريض ، وقلب وطيد كأنه يمثل دوراً في رواية : بخير ونعمة والحمد لله ! انما هذه فضيلة الاخوان بل فضيلة النجديين الكبرى . فهم على فقرهم وسوء حالهم في الدنيا قانعون راضون ، وقلما تسمع كلمة منهم فيها شيء من اليأس او الشكوى .

والسلطان عبد العزيز امامهم في كل شيء . فهو يعرف الشجاع فيهم والتقي والصبور والعاقل والمجنون ، ويحسن سياسة الجميع ، فيستخدمهم في سبيل الله وملك ابن سعود . اجل ان عنده لكل من الاخوان وظيفة ومقاماً : المعتدل للخدمة ، والمتساهل للتجارة والسياسة ، والمجنون للقتال . اما امر الصنف الاخير ، اخوان نوّار ، فقد يستفحل عليه في بعض الاحايين ، وقد يعجز عن ضبطهم دائماً ، لان المسافات في نجد بعيدة والمواصلات كلها اولية . الاخوان قوة هائلة ينقصها نظام وادارة ، والا فتتفلت من يد سيدها وتكون عليه وعلى سواه وخيمة العاقبة . مثال ذلك ما حدث في الشامية بالعراق يوم هجم الدويش باهل الارطاوية على ابن سعدون وعشائر العراق فهزموهم شر هزمة واذاقوهم من هول الاخوان ما لا ينسونه حياتهم .

ولنا في ما حدث في الجوف السنة الماضية مثال آخر . غير ان عذر اخوان الجوف كان واهياً فلم يقبله السلطان عبد العزيز . بل أمر بالقبض على رؤساء تلك الغزوة وباحضارهم مقيدين الى الرياض حيث

سجنوا ثلاثة اشهر .

كنت في عاصمة نجد يوم اطلق سراحهم فاحضروا امـام السلطان فخاطبهم قائلاً : لا تظنوا يا اخوان ان لـكم قيمة كبيرة عندنا . لا تظنوا انكم ساعدتمونا وانا نحتاج اليكم . قيمتكم يا اخوان في طاعة الله ثم طاعتنا . فاذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم . اي بالله ، ولا تنسوا ان ما من رجل منكم الا وذبحنا اباه او اخاه او ابن عمه . وما ملكناكم الا بالسيف . ترى الصحيح . والسيف لا يزال بيدنا اذا كنتم يا اخوان لا ترعون حقوق الناس . لا والله ، لا قيمة لكم عندنا في تجاوزكم . انتم عندنا مثل التراب ... اما اذا اعدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله خذوه من هذا الخشم — وضرب بالسبابة انفه — وحقي آخذه منكم دائماً باذن الله ... انتم ما دخلتم في طاعتنا رغبة بل قهراً واني والله اعمل بكم السيف اذا تجاوزتم حدود الله .

في القصر بالرياض

الشعر في نجد – بيت يشرح التاريخ – خيـانات الاقربين – ولاء الاباعد – ما قاساه السلطان عبد العزيز – السياسة فوق الجنسيات والمذاهب – بيتان من الشعر فوق باب المجلس – سجايا اهل نجد – يلبون النفير وقلما يكلفون السلطان شيئاً من النفقات – «هم يعطوننا في ايام الحرب ونحن نعطيهم في ايام السلم» – معرض العطاء – مثل من الجريدة اليومية – ابراهيم بن جميعة رئيس التشريفات والمستر فلبي – امراء العرب يجيئون الى الرياض مسلمين – حلم السلطان مثل كرمه – شلهوب وزير المالية والتموين – «الذي يجيء نقيده والذي يروح نقيده والنتيجة لا شيء» – جيش من الكسالى – فقر وقناعة – مئات يأكلون في القصر مرتين كل يوم .

لا يزال للشعر مقام في نجد وان رثت حواشيه وتفاقم اللحن فيه ، فكثيراً ما تجد على حيطان القصور اثراً من حكمة القدماء ونفائس الشعراء ينبئك بما يتمثل به الامراء والعربان ، او بما كان من حادثات الزمان . وفي القصر بالرياض فوق الابواب في رواق المجلس العـام ، كُتبت على الحائط بالحبر الاسود بخط رديء ابيات من الشعر منها :

اذا خانك الادنى الذي انت حزبه فواعجباً ان سالمتـك الاباعـد

ان اللبيب العالم بتاريخ نجد الحديث ليقرأ في هذا البيت الوحيـد فصلاً في الخيانات والدسائس التي كان السلطان عبد العزيز هدفاً لهـا وسيفاً لامعاً عليها . الخيانات في اقرب الناس اليه ، وفي البدو ايضاً والاخوان . اما الاباعد الذين سالموه بل والوه ، وكانوا له عوناً على اعدائه اثناء الحرب العظمى ، فهم حقاً من الاباعد ، الاباعد قوماً ، الاباعد ديناً ، الاباعد مزاراً . وما كان ليربط آل سعود بهم غير

السياسة والمصلحة . ليس قصدي ان افيض الآن في الكلام عن تلـك الرابطة واسبابها ونتائجها ، وانما القصد ان اشير الى ما في حيـاة ابن سعود من شدة قاساها ، وغم يكنه ، فيبدو في بعض الاحايين يابساً كالجرح القديم في وجه الجندي .

ان السلطان عبد العزيز ، وان كان قد ذلل العقبات ، وفلّ حد النكبات ، واصبح ، اذا صح الحكم على الرجل من حديثه ومحضره ، آمناً مطمئناً ، انه ليفصح في هذا البيت من الشعر عن حقيقة لا يزال يؤلمه ذكرها وقد يكون أمر بكتابته فوق باب مجلسه ليذكر ايضاً به اولئك الذين كانوا بالامس حرباً عليه واصبحوا اليوم من خاصة رجاله . اما ولاء الاباعد فالعجب فيه يتجاوز ظاهر امره . العجب كل العجب من مصالح تنتصر حتى في نجد ، حتى في الحجاز ، على رابطتي القومية والدين . فعبثاً يكبر الناس الواحدة ويقدسون الاخرى . ان عرى الاثنتين لتنحل وتتقطع ، كأنها حبال شمس الضحى ، عندما يمسنا منها الضر او يستحثنا عليها غرض مادي او معنوي .

وهناك ابيات اخرى من الشعر تفصح عن خلة حميدة مجيدة ، ليس في السلطان وحده او في آل سعود او في الاخوان ، بل في اهل نجد كافة . ولكنت اقول انها تعبر عما في قلب كل عربي من الاباء والنخوة والشجاعة لولا اني رأيت من العرب في غير نجد من لا اثر في انفسهم لتلك السجايا الشريفة . اما في نجد ، في البادية والحضر ، فلا غرو اذا تمثل الناس بقول الشاعر الذي رفعه السلطان عبد العزيز الى ارفع مقام عنده ، فأمر بكتابة كلماته فوق بابه :

فاما حياة لا تذم حميـــدة ... يحدث عنها من اغار وانجدا
تنال المنى فيها ، واما منية ... تريح فؤاداً خار من علة الصدا

هم يجيئون من كل حدب وصوب في ايام الغزو او الحرب وهـذا لسان حالهم . اجل ان امراً يصدر من الرياض فيحمله النجابون الى اقاصي البـلاد ، ليجمع على احد الآبار او في احد الشعـاب في اليوم المضروب الوفاً من اهل نجد ، بادية وحضر ، وقد جاء كل على ذلوله مسلحاً ببندقيته ، وممنطقاً بذخيرته ، وحاملاً بعض التمر والمـاء ، ان أمراً كهذا مطاع ولا مردّ له . فهم اثناء الغزو او الحرب لا يبغون من سلطانهم شيئاً . هم يعطوننا — الكلام للسلطان عبد العزيز — ولا يأخذون منا . ونحن في ايام السلم نعطيهم ولا نأخذ منهم .

لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض ، بل كنت اشاهده كل يوم مدة اقامتي هناك ، واعجب جداً لا لكرم هذا الرجل بل لايمانه وثقته بالله ، مصدر الخير غير المتناهي وولي النعم التي لا تزول . والا فكيف يؤمل بدوام حال تمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة ؟ (١) هنالك حكومة فردية اوتوقراطية وديموقراطية معاً تبرأ من قواعد الادارة والنظام كلها ، وبلاد ثلاثة ارباع ارضها بادية قفراء ليس فيها من موارد الثروة غير الانعام ، ورعية ثلثاها من البدو واكثرهم حتى اليوم لا يحسنون صناعة ما ، واقليم قيظه يحرق ويبيد وشتاؤه لا يصدق ولا يحسن الوفاء ، فتجيء السنون المجدبة فتعقم المفالي ويعم البـــلاء .

ومع ذلك ترى نجد اليوم عزيزة بعبد العزيز ، تستمتع بأمن منقطع النظير في كل البـــلاد العربية ، وبعدل كبير شامل يحمل السيف والقسطاس ، وبخير فوق ذلك لا تنفد موارده .

— هذه يا طويل العمر جريدة بمن نوّخوا اليوم .

(١) كان ذلك قبل اكتشاف البترول . الناشر

يقدمها ابراهيم [١] رئيس التشريفات فيقرأها السلطان ويكتب الى جانب كل اسم ما يجب ان يُعطى صاحبه يوم ارتحاله . استأذنت عظمته باحدى تلك الجرائد وفيها اكثر من مئة اسم ، ونقلت من رأسها ووسطها وآخرها ثلاثة اسماء لأطلاع القارىء على احوال ابن سعود كلها .

بخط رئيس التشريفات : حمود بن صويّط معه فرسان وذلول (بعض الزائرين يجيئون بالهدايا من خيل وابل) .

بخط السلطان : الفان روبية وبشت وبّر معلّم (اي عباءة مقصبة) وزبون (قنباز) جوخ وسيف مذهب .

---

(١) ابراهيم بن جميعة من حايل كان من اعداء ابن سعود في احترابه وابن الرشيد وهو اليوم من اقدر رجال السلطان واكثرهم اخلاصاً له . قد رافق المستر فلبي – كان امير حملته – الى وادي الدواسر . فسألت ابراهيم ان ينص عليّ قصة اهل الوادي و « النصراني الكافر » التي رواها فلبي في كتابه . فقصها عليّ وكان صادقاً ولا شك اذ ما وجدت فرقاً بين الروايتين . ولكن الفرق كل الفرق انما هو بين الانكليزي العالم والعربي الذي يكاد يكون امياً . الفرق بين اخلاق الاثنين يستحق هذه الحاشية . يظهر ان المستر فلبي ، وهو صعب المراس ، اختلف مراراً وامير حملته . فلم يدرك مقامه في القصر على ما اظن ، وفاته ان عظمة السلطان اكرمه اكراماً ممتازاً حين وكل امر رحلته الى رئيس التشريفات . اختلف الاثنان في الطريق وتنافرا ، فقص المستر فلبي القصة في كتابه وحمل على ابن جميعة بلغة لا يفهمها – طعنه في ظهره . ولعمري ان ما قاله لا يليق بشهم انكليزي ولا يجوز ان ينشر في كتاب علمي نفيس . اما ابن جميعة فماذا قال في المستر فلبي ؟ سألته مراراً ان يقص عليّ القصة كلها فأبى وتردد . وكل ما قاله مما يشتم منه النفور : فلبي غضوب . طبعه ما هو زين . ولكنه كريم ، اعطى كل واحد من الربع من الاربع الى العشر ليرات . حبذا اخلاق العربي وحبذا معها العلم والتمدن .

بخط رئيس التشريفات : سليمان بن علي من اهل حايل .
بخط السلطان : اربعمئة روبية وبشت وزبون .
بخط رئيس التشريفات : هداع بن سلطان بن زايد راعي (حاكم) عمار معه عشر ركائب (نوق) عمانيات (هدية) .
بخط السلطان : ثمانية الاف روبية وسبعون ليرة وعشرون بندقية وفرسان .
ثم الى رجاله الخمسة والعشرين كل واحد كسوة وكيس فيه من المئة الى الخمسمئة روبية حسب مقامه .

هؤلاء ثلاثة من المئات الذين ينحرون[1] الرياض مستعطين ولي النعم فيها . ومنهم من يعود الى اهله ومعه فوق الكسوة والمال حمل او حملان من التمر والسمن والتمّن (الارز) والسكر والبن .

ان في الجريدة اسماء اناس من غير رعايا ابن سعود ، جاءوا زائرين مسلمين . منهم ابن صويط من مشايخ الضفير في العراق ، وابن مجلاد من مشايخ عنزى في الشمال ، وابن نايف من بني علي في المدينة المنورة ، وابن سلطان بن زايد من عمان ، وابن الدخيل من قبل نوري الشعلان . كلهم يؤمون الرياض لعلمهم ان فيها رجلاً من كبار رجال العرب اليوم بل اكبرهم ، يؤمونها اما حباً واجلالاً ، واما خوفاً واستعطافاً ، واما ابتغاء مساعدة مادية او سياسية . وقلما يعود احد من عاصمة نجد خائب الامل .

والرجل في حلمه مثله في كرمه . جاءه ذات يوم شيخ قبيلة حاربته

---

(١) نحر البلد او الديرة اي قصدها سلماً او غزواً .

بضع سنين ثم دانت له ، فاقام الشيخ اياماً في الرياض وقال للسلطان عند الوداع : قالوا لي انك سحار يا عبد العزيز . صدقوا والله فقد سحرتني . ان اخبار حلمه لادعى الى الدهشة والاعجاب من اخبار كرمه .

ليس من ينيخون في باب السلطان كل يوم الشاهد الوحيد على جوده ، وليس من يجيئون ممن كانوا بالامس اعداء ، الشاهد الفرد على حلمه واقتداره . فان في الخرج والافلاج [1] وفي القصيم ، وفي ظلال أجا وسلمى [2] مئات ممن يحمدون الله ثم ابن سعود على حياتهم وعلى ما هم فيه من خير ونعمة . وفي الرياض جيش من السباهلة والفقراء يتراوح عددهم بين الالف والالفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم الظهر والمساء . وفيها ايضاً مئة اسرة او ما يزيد ، منها أسر بيت الرشيد ، لا يكلفهم الله على مـــا يظهر اقل سعي في سبيل رزقهم . فالبيوت والخيل والابل والثياب والمؤونة والجواري والعبيد ، كلها من الشيوخ ، من السلطان .

ــ ادفع يا شلهوب . وزع يا شلهوب [3]

(١) الخرج والافلاج من مقاطعات نجد الجنوبية وهي جنوبي العارض .

(٢) اجا وسلمى من جبال بني طي قديماً ، وجبال شمر اليوم وفيها حايل .

(٣) هو محمد بن صالح الشلهوب وزير المالية ووزير التموين عند السلطان عبدالعزيز وما الوزارة هنـــاك غير صدى الارادة السلطانية وآلة من آلات احكامها . الا ان الشلهوب هو صليب الشيوخ فيه عذاب وفيه خلاص – وفيه اخلاص لا ريب فيه . مهماته متعددة تشمل الكبيرة والصغيرة . من المدفع الى عود الكبريت . فهو يتولى أمر التوزيع العام الشامل . يوزع الحطب ، ويوزع السمن ، ويوزع السلاح ، ويوزع المال . طريقته في الادارة اولية بدوية ، وحساباته قروية . قال لا فض فوه : الذي يجيء نقيده ، والذي يروح نقيده ، والنتيجة لا شيء . وليس في طريقتـــه محاباة وتفضيل . طوّف بي ذات يوم مخازنه فدهشت لما في ذمته من الاموال ، وفي

رأيت العربان والاخوان ينتظرون في الرواق وشلهوب جالس وراء منضدته يعد الروبيـــات ، واعوانه في المخازن حوله يوزعون الثياب . وكنت ارى كل يوم عنـــد غروب الشمس صفاً طويلا من العبيد ، ساسة الخيل ، كل يحمل وعاءه وينتظر عنـــد باب من ابواب شلهوب ليملأه شعيراً . ان لشلهوب منازل كثيرة ومهمات متعددة . هو مثل يوسف في مصر الفراعنة . وملكناه ... وجعلنـــاه على خزائن الارض . وهو مع ذلك القيم الاول في المطبخ السلطاني والمطبخ العام اللذين لا يختلفان في غير التمّن اي الارز . فالصنف الذي يطبخ للسلطان ورجاله احسن من ذاك الذي يطبخ للعربان والاخوان .

يوم وصلت الى الرياض هالني عندما انخنا امر اولئك العربان من بدوٍ وحضر واخوان . رأيتهم جالسين خارج القصر وداخل القصر في الاروقة على مجالس من الطين ، رجال وصبية ، وبايديهم العصي ينكتون بها الارض ، او يرفعون رؤوسها الى شفاههم يداعبونهـا مثل اماجد الانكليز . وكل واحد منهم رب أمره ملتف برداء العظمة والسكينة ، كأنه أمير خطير لا ينظر الى جاره ولا يكترث به . مئات من « الامراء » جالسون صامتون — يتفرجون ؟ سألت رفيقي : هــل جاؤا يتفرجون علينا ؟ فقال : لا . انما الآن وقت الغداء وهم ينتظرون الامر بالدخول ، الامر من وليّه شلهوب . ولكنهم في دعـــائهم

تابع شرح صفحة ٩٤

ذاكرته من الاشياء . هذا مخزن السلاح والذخيرة ، وهـذا بيت التموين ، وهـذه الخوابي صنع الهنـد للسمن ، وهذا التمن مئـات من الاكياس مرصوصة بعضهـا فوق بعض . ثم أدخلني غرفة ذكرتني بمخازن الرهون بلندن وبنيويورك . كل ما فيها مهمل مجهول ومكدس بعضه فوق بعض سألت الشلهوب عنهـا فقال : غنمناها في احدى المواقع ولا ادري ما فيها .

لعبدالعزيز بطول العمر لا يذكرون شلهوباً بغير الذم . ولماذا ؟ــ التمّن ما هو زين . الله يغربلك يا شلهوب .

وكنت أرى كل يوم قبل غروب الشمس ليس في ساحة القصر بل وراءه عند باب المطبخ جمعاً آخر محتشداً هناك ، جمعاً كبيراً من فقراء البدو المخيمين خارج المدينة ، نساء يحملن اطفالهن ، وصبياناً عراة ، وبعض الرجال في اطهار ممزقة بالية . جمعاً تأكله القذارة وتنتشر منه الروائح الكريهة . وكلهم جاؤا في هذه الساعة وبايديهم اوانٍ من الخشب او النحاس او الفخار ينتظرون شيئاً من الطبخ ، ينتظرون فضلات المائدة العامة .

ما رأيت في الفقر مشهداً اشد وبالاً وابلغ فصاحة في ما يثير التسخط والاحزان مثل هذا المشهد الهائل. انه لفقر وجوع في قذارة، وقذارة في ذل ، وذل في قناعة .

لو كان مثل هذا الفقر في مدن نجد كلها لكان يخشى منه على ملك ابن سعود . ولكن العاصمة تمتاز عن سائر المدن بمن يحوم على موارد الرزق والخير التي لسيد البلاد . ومع ذلك فان مثل هذا البؤس في قلب نجد ليحط في عين الاجانب وفي عين الحضر من العرب ايضاً من كرامة ولي الامر والنعم . فحبذا العمل باقتراح اقترحته على عظمة السلطان ، وهو ان يشغل السباهلة المعطلين بدلاً من ان يتصدق عليهم . ليشغلهم في الاشغال العامة ايام السلم ، كاصلاح آبار المياه في البلاد واكثرها في حاجة الى اصلاح وترميم ، وتعبيد الطرق للسيارات التي بدأت اليوم « تطوي البيد طي » فيأكلون اذ ذاك خبزهم بعرق جبينهم وينفعون وينتفعون .

عبد العزيز آل سعود

ونفعل فوق ما فعلوا

بيت من الشعر فيه حكمة وفيه خطل – الشرقيون والمسلمون – العصامية في العرب – الاقتداء بالاجداد – «ونفعل فوق ما فعلوا»– ما يثبت هذا القول في اعمال السلطان عبدالعزيز – المشايخ والعلماء– تساهل السلطان – موقفه في الدعوة المذهبية – يجيب على سؤالين – الدين والسياسة والحرب – الحكم اللامركزي – رأيه في الوحدة العربية – المقابلة بينه وبين الملك حسين .

نقلت في الفصل السابق شيئاً من الشعر المكتوب على الحائط في رواق المجلس العام ، وفيه تصوير لاخلاق النجديين وقواعد في الحياة يتمشون عليها . بل فيه ينعكس بعض ما يخالج السلطان عبدالعزيز من أليم الذكرى ومن شريف المقاصد والآمال . وهناك بيتان آخران فيهما مزيج من الحكمة ومن الخطل الذي ألفه الشرقيون . عفواً ايها القارىء . اننا نجني على الشرقيين في التعميم ، لان اليابان والهند حتى الصين نبذت ذاك المزيج او قامت تصلح مـــا افسده الزمان في التقاليد والاحكام . يجب ان اقول اذن : ذاك المزيج من الحكمة والخطل الذي ألفه المسلمون فخدر منهم العقل والروح والقلب كذلك . خدر العقل فقلما ينشط الى فكر جديد ينعشه ويحييـــه ، وخدر الروح فلا تكترث بما فيه صحتها ، وخدر القلب فلا يحس بالبلية المشتركة احساساً مدنياً قومياً يحمله على نبذ ما ألفه من قديم العادات ، وما يقيده من ذميم التقاليد والخزعبلات. قرأت مرة في حضرة السلطان ما كتب فوق بابه :

لسنا وان كرمت اوائلنا　　يوماً على الانساب نتكل

جاء مغلوطاً مبنى [1] لا معنى، فقلت، والمعنى ما يهم : ليس اشرف منه مبدأ يا مولاي ولا اجمل منهـا حكمة. واني اجلكم واحترم اهل نجد لانهم يعملون بها، ولان السيادة والمجد في بيت آل سعود نشأا عنها. انتم عصاميون ديموقراطيون، ونحن في زمن يُرفع العصامي الديموقراطي فيـه الى اعلى المقامات. ولكن البيت الثاني يا مولاي :

نبني كما كانت اوائلنا　　تبني ونفعل مثلما فعلوا

ها هنـا الخطل. ها هنـا المستنقع الذي تنتشر منـه جراثيم امراضنا الاجتماعية والسياسية والدينيـة. وانا اذا تساهلنا في تحليل البيت وتفسيره نسلم بنصفه الذي لا شك ينفع الشرقيين العمل به. اذ لا اظن اننا نستطيع نبذ الماضي كله بجذافيره. فلا بأس ان نبني كما كانت تبني اوائلنا – ان تكون حكومتنا ملكية مثـلًا... فقاطعني عظمته قائلًا : نحن نبني يا حضرة الاستاذ كما كانت تبني اوائلنا. ولكننا نفعل فوق ما فعلوا. فقلت : احسنت يا طويل العمر احسنت. اصلحوا البيت اذن حتى اذا قرأ كل من تشرف المثول لديكم.

نبني كما كانت اوائلنـا　　تبني ونفعل فوق ما فعلوا

تحتدم فيه شعلة الحياه الجديدة، فيسعى وهو يحترم الاجداد في ما يؤهله لاحترامهم. كذلك علينا ان نسعى لنفوق ما قاموا به من خطير الاعمال ونجيدها في زمان حرم من اسباب الرقي والعمران التي

---

(١) هو للمتوكل الليثي وصحته :

لسنا وان احسابنا كرمت　　يوماً على الاحساب نتكل

يمتاز بها زماننا . والحق يقال ان السلطان عبد العزيز آل سعود استعاد في دوره الاول ، دور الفتوحات ، ملك اجداده ، وعزز هذا الملك بالعدل والامن ، وبالدين الذي هو في نجد مصدر الاثنين ، فلا يخطيء او يموه اذا قال نبني كما كانت تبني اوائلنا . ولكنه في تحضيره البدو ، وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى التي تدعى الهجر[1] وفي استخدامه من يحسن الخدمة مهما كان مذهبه ، وفي اعطاء امتياز الحسا لشركة اجنبية . وفي ارساله فتياناً من نجد الى مصر ليتلقنوا فيها العلوم الحديثة ، وفي استحضاره الى الرياض السيارات وبعض الاطباء والمهندسين ، في كل هذا ما يثبت قوله انه يفعل فوق ما فعل اجداده .

ولا يبالي اذا كان المشايخ والعلماء لا يرضون دائماً عن هذه الخطة العمرانية ، اذ ليس لهم ان يعترضوه بشيء في سياسته الداخلية والخارجية التي لا تمس الدين . وهو ، وان قيل انه شديد التعصب لمذهبه ، يحسن المداراة فيتجاهل في ما لا يضر ، ويتساهل في ما هو مفيد لبلاده . قد يفوه احد العلماء احياناً بكلمة فيها بعض ما يكنه من الوجد والاسى فيقول مثلاً : في ايام اجدادكم يا طويل العمر كانت الدنيا مستريحة من هذه المشاكل الجديدة كلها . فيسمع عبد العزيز ويبتسم ثم يسير في سبيله ليتمم مقاصده .

وقلما يكترث مما يشيعه عنه الاعداء وفيهم من الادباء من يجهلون نجد الحديث . لذلك تضاربت الآراء في كثير من الشؤون التي تتعلق

---

(١) الهجر جمع هجرة . وكل مدينة او قرية جديدة في نجد بناها البدو الذين ديّنوا وتحضروا فهجروا اليها من الجهالة الى الدين ومن البداوة الى الحضر هي هجرة .

به وببلاده خصوصاً في موقفه الحقيقي تجاه الوهابية وانصارها الاولين المتعصبين ، العلماء والاخوان . فقد بددتُ بعض الظلمات على ما اظن في تصويري الرجل للقارىء تصويراً صادقاً حقيقياً . وجئت الان اشعل مصباحاً في زوايا السياسة المذهبية التي كان يخامرني منها بعض الريب .

سألت ذات يوم احد رجال السلطان الاذكياء أن يصدقني الخبر او يجهر لي برأيه الخاص ، فقلت : لا انكر ولا ينكر احد صدق عقيدة الشيوخ الدينية ، فهو امام الموحدين . ولكنني حائر يا صديقي في امره والاخوان . فهل تظنه يعتقد ان على الامام ان يحارب المشركين في كل مكان ، ان يجاهدهم حتى يديّنوا ؟ في نيتي ان اسأل عظمته هذا السؤال . فقال صديقي : لا تفعل . والذي أراه ان السلطان يعتقد ذلك من الواجب . لم يرضني جواب الرجل . فتطرقت ذات ليلة الى الموضوع . ومما قلت للسلطان على ما اذكر اني في حيرة لا يزيلها سواه ، واذا سافرت من الرياض احملها ساكتاً لا اكون راضياً عن نفسي ، وقد اسيء اليه في ما اكتب . فقال عظمته : اسألني كل ما تبغي وانا اجيبك عليه . ولا اسامحك اذا سافرت من عندنا وفي نفسك حاجة نقضيها او مسألة نجلي غامضها . فقلت : هل ترون ان من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد ؟

فاجاب على الفور : لا ، لا . وضرب الارض ضربتين بعصاه ثم قال : هذا الحسا ، عندنا هناك اكثر من ثلاثين الفاً من اهل الشيعة وهم يعيشون آمنين لا يتعرض لهم احـــد . الا انا نسألهم الا يكثروا من المظاهرات في احتفالاتهم . . . كن مطمئن البال يا استاذ . لسنا كما يرانا بعض الناس . فقلت اسمحوا لي بسؤال آخر . وكان يجب ان يكون سؤالي الاول : هل ترون من الواجب الديني . . . وهل ترون من الواجب السياسي

ان تحاربوا المشركين حتى يدينوا ؟ فاجابني قائلاً : السياسة غير الدين. ولكننا أهل نجد لا نبغي شيئاً لا يحلله الدين . فاذا حلل الدين مانبغيه فالسياسة التي نتخذها لتحقيقه محللة . واذا عجزت السياسة فالحرب ، وكل شيء في الحرب يجوز .

في الستة اسابيع التي اقمتها في الرياض كان السلطان يزورني في منزلي كل ليلة فنتباحث في مواضيع شتى ، نجدية وعربية وعامة ، وهو دائماً في حديثه فصيح صريح . ليت شعري اية صراحة أبهر مما تقدم ومما سأذكر ؟ ان السلطان عبد العزيز مثل كل رجل كبير لا يخشى ان يقال فيه ان عمله اليوم يناقض عمله بالامس ، وانه في السياسة غيره في الدين . فهو في حكمه البلدان التي امتلكها والعشائر التي تغلب عليها يراعي شؤون اهلها الخاصة من مذهبية ومحلية . ويندر ان يؤمر فيها من هو من غير اهلها .

قبل ان اختم هـذا الفصل اطلع القارىء على رأي السلطان في الموضوع الذي يشغل افكار ملوك العرب اليوم وقلوبهم ، في الموضوع الذي شغل الصحافة العربية في كل مكان ، فكانت اخبارها وآراؤها فيه مزيجاً من الحقيقة الناقصة والغرض الاعمى ، في الموضوع الذي شغل كذلك ساسة الانكليز وصحافتهم فساروا فيه على عادتهم سير صاحب المصلحة الذي يعد كل يوم اصحابه واعداءه ، ويغير كل يوم من آرائه ما توحيه الاحوال .

كانت الوحدة العربية حديثنا في جلسات عديدة . ولكن السلطان ، عندما دنا يوم الرحيل ، افاض في الموضوع فدونت خلاصة حديثه تلك الليلة وعرضتها عليه في الليلة التالية ، فقرأها واصلح خطأي فيهـا . وهاكها في الحالين :

رأي السلطان عبد العزيز في الوحدة العربية

من حديث له ليلة ٣ جمادي الاخرة سنة ١٣٤١ في منزلي بالقصر

— هو يبغي الوحدة العربيـة ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها . فيحضر اجتماعاً يعقد لهذه الغاية ، ويقبل الزعامة والبيعة ملكاً على البلاد العربية كلها لاعتقاده انه اهل لهـــا ويستطيع تعزيزها .

— واذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته ، بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيع .

— واذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف او حلف عربي بين امراء العرب لتعزيز شؤونهم معنوياً وسياسياً ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم اليه .

— واذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها .

— في كل حال هو رجل في سلم بلاده لا يبغي الاعتداء على احد ، ولكنه يأبى ان يعتدي احد عليه .

كتبت خلاصة الحديث تلك الليلة كما هو اعلاه واطلعت السلطان عليها لأتحقق صحة الرواية . فقرأ ما كتبت فقرة فقرة ثم اخذ القلم وضرب على الفقرة الثانية قائلاً : اسأت فهمنا فيها . نحن لا نقول كلمة ينقلها عنا الاستاذ الريحاني ولا نثبت عليها. ولكن هذا لا يكون. اشار وهو يتكلم الى الفقرة الثانية ثم قال : نحن نعرف انفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا .

أيذكر القارىء ما قاله لي الملك حسين ساعة الوداع ؟ — انا لا ابغيها — اي الزعامة — واساعد في تحقيقها — اي الوحدة — تابعاً كنت

او متبوعاً . أوَ لا يذكر كذلك انه رفض ان يوقع المعاهدتين مع الامام يحيى والادريسي لانهما لم يعترفا له بالزعامة العـــامة ، لم يلقباه بملك العرب .

فاذا قابل القارىء بين القولين ، قول الملك وقول السلطان ، ليعجب وان كان شريفياً بصراحة ابن سعود .

الوشم

كم مرة خفت في رحلتي – الحمى والغربة – السلطان المواسي – الموت الذي يزعج – السيد هاشم يصلح عقاله امام المرآة – ما معنى الى الكويت – أكتب وصيتي – أهب السيد هاشم حصتي في الجنة – « وقد جملتك وارث مرآتي ايضاً » – لا ماء الا في الحفر – مكارم عبد العزيز – القافلة تخرج من الرياض – الدرعية – وادي حنيفة – خرائب العيينة – تعدد القلبان ولا ماء – اخوان يسلمون ويستردون سلامهم – الربع يغنون ويدرهمون – احسن الرياضات الجسدية – الحيسية والحطب – الوشم – ثرمدا وشقرا – قحطان وتميم – «دين يا امين فنزوجك بنت من بناتنا وتقيم عندنا » – غزرة الماء في الوشم – قصور الوشم – « ديرة » امرىء القيس – بلد الشاعر جرير – وادي السر .

قد غشيني الرعب ثلاث مرات في رحلتي العربية ، قد خفت كما يخاف الناس ثلاث مرات ، ولا تفلسف ولا اعتذار . قبض الخوف على قلبي وحملق بي هنيهة وهنيهتين ، ويوماً ويومين ، فزعزع مني الارادة والايمان ، فعرفت يومئذ عـــدو الانسان الاكبر ، وعرفت معنى السلامة والاطمئنان .

اول مرة خفت على حياتي عندما لحق بنا عساكر الحواشب واطلقوا النار ليوقفونا من اجل الفطور . وخفت ثانية على حريتي في الاقـــل ، خفت ان اعتقل في قلعة مظلمة عندما سئلت في ماوية : أحسني انت ام حسيني ؟ وثالث مرة يئست فيها من رحمة الله عندما دهمتني الحمى في القصر بالرياض ، فكنت أسيرها اياماً ودرجة الحرارة تهمس في اذني تلك الكلمة التي فيها خاتمة كل شيء .

نعم خفت مرة في الرياض وأحسست لاول مرة في رحلتي اني في الغربة ، بعيد عن بلادي واهلي ، بعيد عن اسباب الصحة والشفاء ، وعن الاطباء . بيد اني في تلك المحنة كنت اتعزى بما عاضني الله من صداقة رجل نجد الاكبر سيد البـــلاد والمكارم . فكان يعودني كل يوم ويجيء كل مرة بشيء يخفف سورة الحمى . — هل اكلت الكنكينا يا صديقي الاستاذ ؟ هذا شراب يبرد الدم . خذ منه الآن . ولكنني في العقاقير كلها والمرطبات ما وجدت ما ينعشني مثل ابتسامة السلطان ومصافحته وكلماته .

قد كنت مع ذلك بائساً مكتئباً وخائفاً على حيـــاتي . اقول . يا حضرة النجيب ، خائفاً على حياتي . وما هي ، وحياتك ، بشيء ثمين لولا ما سخر له صاحبها كما يقول الاولياء . خفت الموت لا لان الموت يخيفني — اقول ذلك اتضاعاً لا فخراً — بل لانه يزعجني ، يقطع علي عملي وانا في مبهجة منه ، يوقفني في نصف رحلتي . وكنت اسمع صوتا فيه ارتعاش اذ كانت درجة الحرارة على حدود الاربع بعدالمئة ، وهي درجة يغتفر عندها الهذيان ، كنت اسمع صوتاً يقول ويردد : الوشم ، وادي السر ، عنـيزة ، بريده ، الكويت . . . الى الكويت . هات الخريطة يا دحيم .

وكان دحيم (مختصر عبد الرحمن) وهو السلحفاة في سيره وعمـله يروح ويجيء في قميصه البيضاء القذرة كأنه طيف الموت بعينه . — ابشر يا استاذ ابشر . ولكنني ، قبل ان يجيء بالخارطة ، اكون قد سافرت على ظهر الحمى الى الكويت عشر مرات . وكان لدي خرائط كبيرة وجدتها في القصر جسمت في نظري المسافات وضاعفت المشقات . اما رفيقي السيد هاشم فكان قد تصلب من طول الصحبة ، او عاد الى

صلابته ، فصار لا يرثي لحالي . لا انساه حياتي وهو واقف عند النافذة والمرآة بيده يحكم وضع عقـــاله ، ويصف لي مشقات الطريق الى الكويت . وكان كل مرة يرى الخارطة بيدي يتناول تلـــك المرآة ليزين روحه ، فيزينها وهو يقول : لا ماء الا في الحفر ، فيريني الحياة كلها مفازات ، ويسمعني فوق ذلك : كلها مفازات . ألا فاسقني غماً وقل لي هو الغم" .

الى الكويت ! ليس في العبارة ، اذا كنت في غير قلب البـلاد العربية ، ما يدعو الى الخوف والاضطراب . هب انك في بمبـــاي ومحجتك الكويت فالسلامة ترافقك في مركب بخاري تعددت فيـه اسباب الراحة والاطمئنان . ولو كنت في العراق وقلت : الكويت ، للبّاك كذلك البخار ، فيحملك على العجلات من بغـداد الى البصرة ويكلك هناك الى باخرة تريك ، وهي تجري في شط العرب ، شيئاً من الجنة على ضفتيه ، وتنزلك من جون من الخليج حفرته يد الزمـــان ، فاطمأن اليه البحر والانسان .

ولكن تلك العبـارة : الى الكويت ، وانت في الرياض ، وراءك الدهناء وامامك الدهناء والنفود ، ولست يا رجل من الدواسر او من بني مره ، وليس لديك من السيارات والطائرات غير « البل »ـ الابل ـ انما هي المحنة التي تفاخرك باخويها الشقاء والموت . ومع ذلك فالسيد هاشم كان يحبب الي" الاخت والاسرة جمعـــاء اكراماً للشيـخ احمد آل صباح والكويت . ولعـــله اكثر من عشرتي وفلسفتي فاستحجر قلبه .

ـ الشيـخ احمد رجل زين ، يا استاذ ، متعلم متأدب ، سافر الى اوروبا ، وهو يتأنق بملابسه ومآ كله . والكويت مدينـة تنسيك

الرياض . هي باريس البلاد العربية . فيها دخان ، وفيها وسكي ، وفيها المباح من النساء، وفيها طبيب ومستشفى . نعم فيها طبيب ومستشفى . . ثم يبادر الى المرآة فيحكم وضع عقاله ويقول : لا ماء إلا في الحفر .

ـ وقد اموت يا سيد هاشم قبل ان اصل الى الكويت .

ـ حياة الفلاسفة طويلة يا استاذ . وهب انك مت فقد شاهدت الرياض والاخوان ، فيؤذن لك بالدخول الى الجنة .

ـ الجنة لكم لا لي . . . هات الخارطة يا دحيم . . . واعطني الماء . سأشرب ما يكفيني الى الكويت .

السيد هاشم بعد ان عدل عقاله ووضع المرآة تحت السند :

ـ الا تعتقد بالجنة يا استاذ

ـ لا اعتقد لا بها ولا بك .

ـ ولكن الجنة كائنة بشهادة الكتاب الكريم والنبي .

ـ جنة البله كما قال الغزالي . هي لك بخشيش مني .

ـ انت تمزح .

ـ انا أجدّ .

ـ اتهبني حصتك فيها .

ـ وهبتكها كلها .

ـ أوَتكتب لي حجة بذلك ؟

ـ يا دَحيم هات الورق والحبر .

فبادر اليّ بهما السيد هاشم فكتبت ما يلي : على فرض ان الجنة موجودة فاني اهب السيد هاشم ابن السيد احمد الكويتي السني الشافعي الرفاعي حصتي فيها . ووقعت الصك ودفعته اليه ، فأعاده قائلاً : بالله

يا استاذ امضه بالانكليزية ايضاً . فقلت ، وقد دونت اسمي باللغتين : أتظن ان لرضوان مستشاراً انكليزياً او ان الانكليز اصحاب الانتداب في الجنة ؟ فقال : الله اعلم ، وعاد الى المرآة يعدل عقاله . كنت قد ادركت ما للمرآة من الاهمية في حياة صديقي فقلت والموت يداعبني : وقد جعلتك وارث مرآتي ايضاً . فسُرّ بالهبتين ونادى :

يا دحيم هات اقْهُوَه .

يا دحيم هات الخارطة . هـذه هي الرياض وهـذا الوشم — مئة ميل — وهاك وادي السر فشقرا فعنيزة فبريدة — مئة وخمسون ميلاً — ومن بريده الى الحفر — مئة وخمسون ميلاً .

السيد هاشم : لا ماء الا في الحفَر .

— توكلنا على الله . ومن الحفر الى الكويت مثلها — الجملة خمسمئة وخمسون ميــلاً ، مسيرة عشرين ساعة في السيارة وخمس ساعات في الطائرة طير « الهوَن » (١) ولكننا في بلاد لا نريد ان نطير فيهـا ولا فوقها . فقد طابت لنا حتى في مفازاتها ، واحببنا ، اهلهــا واحببنا بعارينهم ، فوددنا السير فيها على طريقة دحيم كالسلحفاة لنزداد بهم وبها علماً ونزداد حباً .

قال لي احد الموظفين الانكليز عندما كنا في العقير : احسنت في سفرك من هنا فستتعود تدريجاً على ركوب الذلول فتصل الى القصيم وقد تصلبت فتقوى اذ ذاك على السفر من القصيم الى الكويت .

انها والحق يقال اوعر الطرق في نجد . ومهما صحبني من مكارم عظمة السلطان عبد العزيز من اسباب الراحة والامن وخفض العيش فقد كانت هذه الرحلة عليّ اشد الرحلات مشقة وتعباً وهماً . خرجنا من

(١) يقول اهل نجد في السير البطيء « سير الهون » .

الرياض اثني عشر راكباً وفينا الرفيق والحارس والخادم والطاهي والقهوجي وراعي البعارين ، وهو يسوق قطيعاً من الغنم للذبح ، ومعنا في الحملة الخيام ، وفي مواعين المؤونة حتى العسل من عسير والبسكوت من لندن .

على انه كان معنا ضيف ثقيل خبيث ما رآه احد من الربع ولا علم به امير الحملة هذلول — هذلول الذي كان يرى ما وراءه كأنه امامه فلا يخفى عليه شيء يختص بالحملة او بمن جُهزت من اجله ، لم يرَ ذاك الضيف الثقيل ولا علم به . فقد رافقنا من الرياض رديفاً ، رديفي انا بل رفيقي الاول ، شبحُ الحمى ! وكان يشهر حرباً عليّ من حين الى حين ليثبت وجوده وينفي وجودي فيحمل عليّ بالنـــار فاحمل عليه بالكينا . دامت الحرب شهراً ويزيد ، اثناء الرحلة كلها ، دون ان يفوز احد منا . فكان يتبع كل وقعة هدنة وكل هدنة وقعـــة . ولم يكتب لي النصر المبين الا بعـد وصولي الى الفريكة واستنجادي بهواء لبنان .

اين نحن الآن من لبنان . اننا لا نزال ايها القارىء العزيز تحت سماء العارض وفي ظلال بساتين الرياض التي تمتـــد جنوباً الى المنفوحة بلد الاعشى احد رجال المعلقات . صعدنا قليـلاً في جبل طويق ، وعاصمة نجد التي هي عند سفح الجبل وراءنا والمنفوحة تحتها . ثم اطللنا ، بعد سير ثلاث ساعات شمالاً ، على برج مهـــدوم اشار اليه هذلول قائلاً : هناك نصب ابراهيم المصري مدافعه واطلقها على الدرعية .

وبينما كان يقص علينا قصة تلك الحرب بدت بعـد نصف ساعة الاطلال تحتها ، وقبالتها شرقاً بشمال بساتين من النخيل والاثل اختبأت فيها القرية التي هي اليوم الدرعية الجديدة . نزلنا في شعب من وادي حنيفة

الذي يفضي الى اليمامة ، وسرنا بين الدرعتين قليلاً ، ثم انخنا في عقيق السيل بين ظلي الاطلال والنخيل . وبعد ان امر هذلول بنصب الخيام واعداد العشاء أرسل الى امير البلدة رسولاً يطلب الحطب للنار والعلف للركائب ، ثم مشى يرافقني الى عاصمة الوهابية التي دمرتها مدافع المصريين منذ مئة سنة ونيف .

صعدنا الى الجانب الغربي من السيل القائمة على حاشيته بقايا قصور آل سعود ، فاذا نحن في اسواق مدينة كبيرة كانت تشرف شمالاً على جبل طويق وجنوباً على اليمامة التي هي اليوم بقعة صغيرة في مقاطعة الخرج ، فمشينا بين جدران تداعت ، وفي ساحات لم يبق من عمرانها غير الرسوم العافية ، ووقفنا على جسور متهدمة بين القصور ، ونزلنا في درجات مبرية الى آبار ردمها الزمان .

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حاناتها زجل

كانت الدرعية منذ مئة سنة اكبر مدينة في الجزيرة . سرنا في اليوم الثاني ساعة في وادي حنيفة ونحن لا نزال في ظلال طلولها الدوارس . فلا عجب اذا كانت في ايام مجدها ، في عهد عبد العزيز الاول وسعود الاكبر ، قطب البلاد العربية بعد الحرمين ، يؤمها العرب من كل قطر قصي للاستنجاد بامرائها وللاتجار . من عمان ومسقط وحضرموت كانوا يجيئون الى الدرعية ، ومن العراق والكويت والبحرين ، ومن اليمن وعسير والحجاز .

هذه هي عاصمة نجد في وادي حنيفة وقد دمرها العدو الاجنبي . وهذه هي جُبيلة قريبة منها وقد جعلها آل سعود في حروبهم الاهلية مثل الدرعية . وها نحن في « بلد الشيخ » على مسيرة نصف ساعة من جبيلة . هي « بلد الشيخ » ، مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب ،

العُيَينة المشهورة ، وقد اخنى عليها الذي اخنى على لُبَد . كانت طريقنا بين خرائبها ورسومها ، فسرنا ساعة فيهـــا ، فادهشنا عدد القلبان [1] التي كنا نراها الى اليمين والى اليسار ، وهي عميقة ومحكمة البناء ، وكلها ، يا من اخنى على لبد ، جافة مردومة .

كانت العيينة قائمة وسط سهل فسيح ، سطحه يابس جاف ، غير ان تحته ولا شك مجاري من الميــــاه كثيرة . فما معنى القلبان المتعددة لولا ذلك ؟

اما اليوم فلا ماء في العُيينة ، لا في عيونها ولا في قلبها . هجرتها السواقي الخفية ، فهجرها الانس ، فنبت البَهَق [2] في دورها ، والحرمل [3] في حماها ، دُك تحتها ضلع من الارض ، فتحولت الميــــاه عن مجاريها ، فنضبت القلبان ، ودكت فوقها المنازل والقصور . ولو ان في جوارها اليوم بعض الماء لقامت عندها عُيينة جديدة مثل الدرعية الجديدة . قد شاهدت في نجد غيرها من البلدان التي هجرت او نُقلت لتحوُّل مجاري المياه تحتها .

كانت العيينة من مدن نجد العامرة يوم فرَّ هارباً منها محمد بن عبد الوهاب ولجأ الى الامير سعود بن مقرن في الدرعية . بل كان هذا الوادي وادي حنيفة عامراً في ايام الصحابة بالبلدان والقرى التي كانت يتصل بعضها ببعض من الدرعية الى العيينة . اما اليوم فقبور الصحابة فيــــه و « ديرة » مُسَيلمة ، مسقط رأس الشيخ بن عبد الوهاب هي كلها

---

(١) قلبان جمع قليب (تلفظ في نجد جليب) اي بئر ماء وساقية .

(٢) بهق الحجر نبات يعلو الصخور شبيه بالطحلب .

(٣) الحرمل نبات مثل الطيون لا تأكله المواشي . قيل ان حبــه يخرج البلغم والسودا اسهالاً ويصفي الدم .

مثل القلبان تحت الارض واحدة في الخراب والهجران . بل قد هجر وادي حنيفة حتى الاطيار والازهار ، ولم يبق من الشجر غير الشوكي كالطلح والسلَم . كأنها مخالب الزمان في كبد العمران او اكاليل من الشوك للطلول الدوارس .

ومثل الطلح والسلم في الاخربة هؤلاء الاخوان في الدين . هناك ثلاثة ذاهبون الى الرياض « ليقروا » — ليتعلموا القرآن والحديث . سلموا علينا فرددنا السلام . وراح هذلول يحدثهم ليستطلع « علومهم » (اخبارهم) ثم سمعنا واحداً منهم يقول : ردوا لنا سلامنا . وسمعنا هذلولاً وقد ادبر بذلوله يصيح : سلامكم رد لكم . ثم اشعل السبيل فسألته الخبر فقال وهو يضحك ويدخن : بدو جهال ، سلموا علينا ثم ندموا على السلام . سألوني عنك فقلت : سوري جاء يتاجر بالإبل ، فما صدقوا ، وقال احدهم : هو انكليزي كافر . ردوا لنا سلامنا . فرددتهم وسلامهم الى الجحيم .

فضحك العجماني بدّاح ضحكته العريضة الفضفاضة ، وراح يدرهم ويغني :

يا راكب اللي هجيجا زين (يا راكب الناقة التي عدوها حسن)
ما ضيّجت صدر راعيها (ما ضيقت صدر صاحبها)
اسرع من رماشتك بالعين (رمش العين)
ورماشة العين تلهيها (اي الغمز بالعين)
ممشى العشر تأخذه بيومين
تجيك ما ملّ راعيها

وكأنه كان يتغنى بمديح كل ذلول من ركائبنا الا ناقة سوداء شعراء حرون ، سميتها الحيزبون ، كانت تأبى السير الا غارة ، فتضطر

راعيها سالم القهوجي ان يتخلف عن الربع من حين الى حين ، ثم يطلق لها العنان فتجيء كأنها « جلمود صخر حطه السيل من عل » وهي تهدر كالرعد والبحر الهائج معاً ، والمعاميل — مواعين القهوة — المعلقة بالرحل تصفق لها استحساناً . ولم تكد تلحق بنا حتى تسري منها الى ركائبنا الكهرباء ، فينزق كل ذلول لمباراتها ، فيبادر الركب الى الارسنة وقد كانت على الغوارب ملقاة ، والى الخيزران يهولون بها فوق الرقاب ، وينادي هذلول بدّاحاً وبدّاح يحمس هذلولا ، حي هلا ، حي هلا ! جاب الحيزبون ، شنها سالم المجنون .

اسرع من رماشتك بالعين ورماشة العين تلهيها .

كنت في بداءة امري بالغارات احس ان شيئاً في صدري يذوب فيحدث فراغاً يصعب عنده التنفس . وكنت اتصور الرحل يعلوا ويهبط كأنه موجة تحتي مائجة ، بيد اني بالممارسة ملكت النفس والعنان ، وصرت اهوّل بالخيزران كأني من الدواسر او العجمان . حتى اذا ما دنت مني الحيزبون كنت أسرع الربع الى النخوة والاعتزاز — خيال التوحيد اخو من طاع الله ! وقرينهم في الغارات .

ان في ركوب الهجين خير الرياضات الجسدية . وهو يلذ ولا يتعب اذا بدل الراكب السير هونا بالدرهام ، والدرهام بالغارة من حين الى حين . اي اذا سار يمشي الهون عشر دقائق مثلاً ، ثم مثلها درهاماً ، ثم بضع دقائق غارة ، وكذلك في المسير كله ، فلا هو يتعب ولا تتعب الذلول . بل في هذا السير المختلط صحة الراكب والمركوب وسرور الاثنين معاً . ولم يكن هذلول ليسمح باكثر من ساعة من السير البطيء فيقول اذ ذاك : هوّوا الركائب ، فننشأ ندرهم جميعاً .

قد يخفى على القارىء المتمدن من لا يعرف من اخبار البل — الابل —

غير « سائق الاظعان يطوي البيد طي » وغيرها في الدواوين مـــا في الكلمة « هووا الركائب » من الحقيقة ، وما في العمل بها من الرحمة بالحيوان . ليعلم اذن ان سنام البعير هو من اعضائه الطرية الحساسة وان قل عددها، وان الكور في شكله يحوق بالسنام ولا يضغط عليه فيبدو السنام معــه للهواء كأنه قبة من الشحم في اطار من خشب ، فيستأنس البعير بذلك . وليعلم القارىء كذلك ان الجمل المحمّل مهما ثقل حمله هو اوفر حظاً من الذلول لان الجمل يضغط على جنبيه وظهره اكثر من ضغطه على السنام . اما الذلول فحملها الاول الكور . ثم الفرش — وسادة وسجادة وخرج وجلد غنم — فوق السنام يمنع عنه الهواء ، ثم الراكب وهو على السنام يضغط عليه فيزيد بكربة صاحبته ، ولا سيما اذا سار الهون فلا يتحرك الا ترجحاً اي حركة افقية ، فتزداد بالفرك الحرارة ، ويمسي السنام كقطعة لحم مشوية امـــا اذا درهم فتتغير الحركة ، تصير عمودية ، فيدخل ، وانت تنتفض في الرحل ، شيء من الهواء الى السنام فتنتعش الذلول المسكينة .

وحبذا اعتناء اهل نجد بالاشجار اعتناءهم بالابل . مررنا في وادي حنيفة ببقعة تدعى الحيسيّة فيها غاب من الطلح والسَلَم هو اول مـــا شاهدت في نجد . ولكن الاشجار متفرقة متكسرة ، قليلة الاخضرار ، ضئيلة الظل ، تسطو على اصولها وجديدها الانعام ، ويفتك بفروعهـــا فأس الحطاب . في الحيسية تحتطب الرياض . ولكن اهـــل العاصمة في غفلة عما يحدثه جهل الرعاة وجهل الحطابين . فهؤلاء يقتلون الشجرة واولئك يجهزون عليها، ولا احد يشكو ويلوم . ما رأيت ولا سمعت ان احداً اهتم لغرس الجديد من الطلح والسلم . فلا يمر والحال هذه عقدان من الزمن حتى يضطر اهل الرياض ان ينشدوا الحطب كما ينشد

الرعاة في سنة الجدب الحيا (المرعى) في الاراضي القصية وقد لا يجدونه .

بعد خروجنا من الحيسية نطل على اول بلد في الوشم ، ذاك القاع الكائن بين وادي حنيفة ووادي السر ، الذي يمتد غرباً من سفح جبل طويق . ان الوشم مشهور بقصوره ومزارعه وتاريخه وتقاليده . هذه البَرّة كأنها في قصرها ونخيلها واقفة عند الباب وبيدهـا المفتاح الى وادي حنيفة في تلك الناحية . هي قرية لا يتجاوز عـدد سكانها الخمسمئة نفس اكثرهم من عرب مطير وفيهم مئتان من الاخوان المجاهدين .

اما ثرمدا بعدها ، ثرمدا الكثيرة القلبان ، فان الماء المالح والمـاء القراح يجريان فيهـا جنباً الى جنب تحت النخيل . سكانها من بني تميم واميرها العنقري الذي اضافنا وحدثنا عن العصامي والعظامي من الرجال هو من بني سعد وهم اطيب جذوع تميم في الزمان الاول . قال لي هذا العنقري التميمي العصامي واكد قوله ان عندهم في ثرمدا ثلاثمئة قليب وثلاثة الاف مجاهد . ولكن امير شقرا الذي قرأ بعدئـذ العددين في مذكراتي اسقط صفراً واحداً من كليهما .

ــ هذا الصحيح . ثلاثون جليباً ثلاثمئة مجاهد . او لم يعلّمْك بطباع نساء ثرمدا ؟ هن يكرهن الاقامة فيها . رجال ثرمـدا لا يعدلون في النساء ... لا يستطيعون . لذلك ترى نساءهم ، والحبل على الغارب ، في كل مكان .

لم اتمكن من الرجوع الى ثرمدا لاسمع ما يقولون هناك عن نساء شقرا ، ولكن الامـير القحطاني اكد لي ان نساء بلدهم مقصورات الطرف لا يبغين خارج السور بديلاً . ثم قال : اذا ديَّنت يا امـين نعرسك ببنت من بناتنا فتقيم عندنا وتتحقق قولنا . ونعطيك مع البنيَّة

بيتاً وذلولا ، ونعلمك الغزو وضرب السيف .

ان شقرا لاجمل بلدان الوشم واكبرها ، نخيلها مثل نسائها ، داخل السور يزين البيوت ويحجبها بعضها عن بعض . عددسكانها خمسة الاف فيهم قليل من تميم . اما الاغلبية فهي لبني زيد وهم كما يدعون من قحطان . وبنو خالد من عنزى فعدنان . على ان الجميع في شقرا متآلفون متحابون . ومع ان الناس في نجد يسخرون بالقحطاني ويتهكمون عليه ، فيرمونه بالبخل ، فقد وجدته في شقراء مثله في اليمن عربياً كريماً . لست انسى الامير ووكيل المال والشاعر فيها . ولا انسى ضيافة حالت دونها ودوني الحمى . وهم على كرمهم ودماثة اخلاقهم متضعون . ينحرون لك ، ويمدون سماطاً ملكياً ،ثم يقولون : ما عندنا في نجد غير فاكهتين الماء البارد في القيظ والنار في الشتاء .

ان شقراء مشهورة كذلك بمائها ، ذاك الماء الذي ادهش البدوي عندما شرب منه لاول مرة ، فصاح قائلًا : اقمح يا مطر . وعندهم داخل السور ثمانون قليباً والف من الاخوان المجاهدين يحرثون في ايام السلم الارض ويتعاطون التجارة . اما عمال ابن سعود فليس فيهم من لم يخرج ولو يوماً واحداً الى الجهاد ، فادى شهادة التوحيد وحمل على المشركين . وانه ليدهشك ما يقوم به العامل الواحد من الاعمال . فلا دوائر هناك ولا كتاب ، ولا كراسي تجلس فيها الالقاب ، وتأخذ من مال الامة بلا حساب .

كنا في شقرا ضيوف وكيل المال عبد الرحمن السبيعي ، وهو رجل صغير نحيل عليل ، يحمل في جيبه مفتاح من الخشب يفتح عشرين باباً في داره ، ويتولى الجباية في الوشم كله ، ان بيت السبيعي مفتوح وان ناره مشبوبة على الدوام . السبيعي لحية غانمة كما يقولون هناك . اي انه ذو

يسر وفضل وحمية . ومع ذلك فهو لا يوكل احداً بعمل يستطيع ان يعمله بنفسه . ـ نباشر امرنا بيدنا . الكاتب متيسر ولكن ما كل واحد نأمنه على الاسرار . فنصبر على المشقة ولا نشكو غير ضعف في البدن . لو كان لنا ما للبدو من الصحة والعافية . ثم طفق يشكو البدو . ـ هم على صحتهم كسالى ، خاملون ، ويجب علينا مع ذلك ان نلاطفهم عندما ينيخون علينا . ونجاملهم « ونحبهم » (نقبّلهم) بين عيونهم ونحمل لهم الاكل بيدنا . والا راحوا يسبوننا ويقولون اننا كفار ... البدوي اذا شاف الخير تدلى : واذا شاف الشر تعلى . ثم انشد يقول :

من لا يجينا والديار مخيفة

لا مرحباً به والبلاد عوافي

شكرت الحمى بعدئذ واشكرها الآن على يومين في بيت عبدالرحمن السبيعي تداويت فيهما بطيبتين لبنه وحديثه .

ذكرت ما في ثرمدا وشقرا من تعدد القلبان مما يدل على غزارة الماء في الوشم . فان مياه جبل طويق تصب غرباً بجنوب تحت هذا القاع ، فتصل الى الخرج والافلاج ، فتتكون هناك بحيرات شتى ، كما تصب شرقاً بجنوب تحت الدهناء والصمان فتظهر في الاحساء . والشاهد على غزارة الماء في الوشم تعدد القلبان في القرى وخارجها في القصور . قد اشرت فيما سبق الى القصور في نجد فازيد القارىء علماً بهـا ، او بالحري بتلك التي في البر مثل قصور الوشم . فالقصر هناك سور مربع في كل زاوية منه مفتول او برج ، وداخله بيوت للسكن وللانعام ، وقليب ومقهاية ومسجد . هو اذن جامع بين المزرعة والقلعة فيستخدم في ايام الحرب للدفاع . وهذه القصور بعيدة بعضها عن بعض ، حول

كل قصر منطقة خضراء مزروعة ، وبين كل منطقة واختها قفر قاحل كالصّمان .

فلو عاد تميم ووائل وقحطان اليوم الى تاريخ اجدادهم في الاندلس مثلاً لعلموا بما كان لهم على الارض من الايادي البيض ، لعلموا بما كان اولئك الاجداد يبنون من السدود والقني للري ، فيساوون بين كل بقعة صالحة للزرع ويستثمرونها كلها . اني على يقين من ان الابار الارتوازية في الوشم ، وبناء السدود والقني ، واستخدام الالات البخارية للرفع والدفع تمكن اهله من زرع كل باع فيه فتزداد غلاله عشرة اضعاف . وما يصح في الوشم يصح في القصيم .

دع عنك الزراعة الآن . فها نحن في الطريق التي اكلت قديماً نعال الشعراء ، في « الديرة » التي زانها يوماً من قال : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . لست ادري اذا كان سقط اللوى هـا هنا او في ذا الجوار ، واذا كانت حومَل والدخول بين ثرمدا والنفود . ولكن هذلولاً وهو شاعر يقول ان الى يسارنا على مسيرة نصف ساعة بلدة تدعى أثيثيهُ هي مسقط رأس الشاعر جرير ، وان بين ثرمدا واثيثية مرآه بلد امرىء القيس .

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

ولكن الوشم اليوم أصيب بادبه كما اصيب بارضه . فيا له من مجد عفت رسومه ، ومن بلد عفنت علومه ، فصار حتى الدوسري يزدري ابن الوشم ، والسديري يسخر بقراريشه اي حمّاريه .

لا تحسبني من قراريش الوشوم   من ثرمدا والمشيقر والاَمرّات

ان اقدم بلدان الوشم هذين البلدين ثرمدا والمشيقر ، وان اكبرها شقرا الكائنة في الطرف الشمالي ، وليس بينها وبين الطرف الجنوبي من

القصيم غير وادي السر . على ان هناك بين الوشم والوادي ، النفود [1] التي قطعناها بثماني ساعات . وبكلمة اصح ان هناك نفدين اثنين ، الصغير الذي يدعى البنترة وهو مسير ساعتين ، والكبير الذي يدعى اعزم وهو مسير ست ساعات . وان بين النفدين حاجزاً من الارض الحصوية المجدبة التي تُستغرب في شكلها ومكانها ، هي دائرة بيضاء بين تلك الكثُب الذهبية ، وفي احد اطراف الدائرة حجارة بركانية سوداء منها متبعثرة ومنها مرصوفة بعضها فوق بعض . اعجب بها من ارض يبهجك تكوينها الرملي ، ويدهشك ظاهرها البركاني . بعد ان نصعد خمسمئة قدم في النفد الكبير ، وننزل مثلها ، نشرف على وادي السر ، فنجوز العيون هناك ، ونسير في الوادي الى المذنب اول بلدان القصيم .

---

(١) النفود جمع نفد وهي مشتقة من نفد نفاداً اي ذهب وفني وهلك .

القصيم

الهواء والاخلاق – القاع في العوسجية – نهر متجمد من الملح – اهل العوسجية ملح الارض – الاشراف على عنيزة – باريس نجد – سحر النفود والنخيل – خطر النفود – سوق عنيزة – اسر عنيزة القديمة – اكرامهم للغريب – القهوة والشاي والطيب – قاعة الاستقبال – النقش على الجدران – هندسة عربية – آل سليم – آل بسام – التساهل في عنيزة – لو جاءها « خليل النصراني » اليوم لاكرمه اهلها – وادي الومّه – الفرق بين عنيزه وبريده وبين اهل المدينتين – القصر في بريده – سويلم بن سويلم وكيل الامير – التهذيب العربي في اجمل مظاهره .

القصيم يعلو زهاء الف قدم عن العارض ويبعد مئتي ميل عن الغلو في الدين ، فيتغير الهواء والنبات ، وتتغير كذلك اخلاق الناس . سرنا في وادي السر الى جانب النفود وهي الى يميننا قافلة من الكثب تدنو وتبعد منا ، فيتقلص ظلها ويمتد ، ثم يختفي معها فلا نرى منها غير الاسنمة والرؤوس الذهبية . وبعد مسير عشر ساعات في واد يكثر طلحه وشنانه اشرفنا على العوسجية وعلى ما يشبه النهر شرقاً منها . فسألت هذلولا : اسراب هذا ؟ فقال هذلول : هذا القاع . وسألت سالماً فاجاب : القاع . وسألت بداحاً فقال : هو القاع بعينه .

وما هو القاع ؟ في اليمن يطلقون الاسم على السهل فيقولون قاع يريم مثلاً وقاع الحقل ، فيكون القاع اما اخضر واما اسود او احمر اذا لم يكن مزروعا . بيد ان هذا القاع ابيض كالثلج ولم يتغير في قربنا منه ، ولا بدا على وجهه تموج يدل على الماء . فعندما وصلنا الى العوسجية بعد الظهر تركنا الخدم ينصبون الخيام ويعدون

الطعام وسددنا خطواتنا انا ورفاقي الى القاع شرقـــا من القرية . فاجتزنا بستاناً من النخيل ، وغيضة من الطرفاء ، وادغالاً من نبات طويل لزج يدعى النَّهر "طميل ، فاذا نحن بعد ذلك في ارض سبخة موحلة واذا بالنهر او القاع قيد ابواع منا . أنهر في نجد ؟ اي نعم نهر من الملح المتجمد ، من قصفات السودا ، عرضه نصف ميل ، وطوله من الخمسة الى السبعة اميال .

خضنا الارض الموحلة الى الصفحة البيضاء فالفيناها جامدة مصقولة كالجليد ، صلبة كالجلمود ، ناشفة كالرمل ، ولا باردة هي ولا حارة . جلست هناك وتربعت وشكرت الله على ذا المظهر الغريب العجيب في الكائنات . هوذا نهر ماؤه جامد جاف ، وهي ذي بحيرة حـــار جليدهـــا . سألت رفاقي ان يجلسوا فترددوا خائفين . هي اول مرة جاءوا الى القاع وخبروا حقيقته . دقوا ما تحت ارجلهم بخشب البنادق ليتحققوا صلابته وجلسوا وهم يضحكون ، ثم قـــال بدّاح : والله يا هذلول بلاد نجد عجيبة . فاجابه هذلول : واعجب منها يا بدّاح نحن الذين لا نعرف ما فيها .

قطعنا صفيحة من هذا الملح فاذا سمكها اربع اصابع ويتخلله شيء من التراب والقش . امـــا اذا دنوت من وسط القاع فيزداد السمك ويصفو الملح فيقل فيه التراب . على اننا لم نر في اسواق عنيزة وبريدة ملحاً نظيفاً . فهم يجلبونه من هـــذا المكان ويبيعونه صفائح كبيرة وصغيرة كما يقطعونها .

العَوْسَجية قرية صغيرة حقيرة فقيرة لان تربتها بسبب هذا القاع جلها سبخة لا يصلح زرع او غرس فيها . ولكن اهلها ملح الارض . جاءنا وجيههم يدعونا للقهوة — تفضلوا نقهويكم — فقبلنا شاكرين ،

وكانت اول ضيافـــة من مثلها في القصيم . جلسنا حول الموقد على الوسئد ورب البيت يحدثنا بينما هو يعمل القهوة . ثم اشعل السبيل ودخن وقدمه لهذلول فاداره على الربع . ثم جاءنا بخبيص يدعونه عبيطاً يعملونــــه من التمر والسمن استلذذته واستعدته . فضحك العوسجي الكريم واثنى على حريتي قائلًا : كأنكم من القصيم . جاء هذا العربي الفاضل في المساء يرد الزيارة ويشرب القهوة فازددت اعجاباً بـــه وبكرم اخلاقه اذ قدم للربع شيئاً من التبغ واعتذر قائلًا : لولا قلته والله زودناكم منه .

وكانت ضيافة العوسجي فاتحة الضيافات في الايام التاليـة بعنيزة مليكة القصيم . عنيزة حصن الحرية ومحط رحال ابناء الامصار . عنيزة قطب الذوق والادب ، باريس نجد . وهي اجمل من باريس اذا اشرفت عليها من الصفرا [1] لان ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود . بل هي اجمل من باريس حين اشرافك عليها لانها صغيرة وديعة خلابة بالوانها ، كأنها صورة صورها مانه [2] لقصة من قصص الف ليلة وليلة ، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد . بل قل انها السكينة مجسدة وقد بنت لها معبداً بين النخيل ، زانته بافريز من ذهب الرمال ، وكللته باكليل من الاثـــل . فهي في مجوف من الارض يحيط بها غاب من هـــذه الاشجار ليرد عنها رمال النفود التي تهددها من الجهات الثلاث ، من الشمال والغرب والجنوب . قلت مرة لاهلها : انتم والنفود قوم [3] فاعجبوا بالكلمة وتناقلوها . انها الحقيقة

---

(١) الصفرا مثل الصمان ، ارض حصوية مجدبة شرقي عنيزة وتعلوهـــا مئتي قدم .

(٢) كلود مانه Claude Manet المصور الفرنسي .

(٣) قوم اي اعداء في اصلاح العرب .

ولا مبالغة . فالنفود تحاربهم بالرمال تدفعهـــا الرياح من كل جانب فتسفّيها على المدينة، وهم يحاربونها بالاثل يزرعونه غياضاً فوق الكُثُب خارج السور .

قد تصغر عنيزة دون اهلها ، وهم زهاء ثلاثين الفاً ، لان النفود تقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد . فهي لذلك مزدحمة بالسكان واكثر اسواقها كالسراديب لانهم يبنون فوقها الجسور وفوق الجسور البيوت . ولكن هناك سوقاً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيهـا من الاشكال والالوان . فتذكرك باميركا وبلاد الانكليز ، وتنقلك الى الهند واليـابان ، وتسمعك اللغـــات الانكليزية والفرنسية والهندوستانية ، ولهجات من العربية متعددة .

وفي عنيزة أُسر قديمة عريقة بالنسب والفضل [1] وقد ساح آباؤها في البلدان القصية والامصار شرقاً وغرباً فزادتهم السياحة لطفاً واتضاعاً، فرفعوا الضيافة الى مقام تنفتح عنده ابواب البيوت والقلوب معـــاً . اجل ، ان الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريباً ، فسواء اكان مسلماً ام كافراً ، موحداً ام مشركاً ، فهو يشعر ها هنا انه بين اناس الفوا مثله والفوا فوق ذلك اكرام الضيف اياً كان . فيستأنس ايما استئناس ويلبي دعواتهم مسروراً شاكراً .

ـــ تفضل نقهويك . هي دعوة شبيهة بدعوة الانكليز للشاي . وفي الضيافتين شيء غير القهوة وغير الشاي جميل ، فيهما ميل الى الحديث والتعارف ، ورغبة في الالفة والوداد . على ان ضيافة العربي العنيزي تمتاز عن ضيافة الانكليزي في ان رب البيت يخدمك بنفسه من حـين

---

(١) مثل آل سليم وآل بسام وآل ذكير وآل غماص وآل قاضي .

الاستقبال الى حين الوداع . وما اجمل ذاك الكرم وتلك الوداعة ولاسيما ان الفضيلتين نشأتا في عزة نفس لا تحتاج الى الابهة لتؤيدها .

ان قاعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة . وهي عادة طويلة فسيحة عالية سقفها ، وقد سقف بخشب الاثل ، قائم على اعمدة من الحجر مطلية بالجص ، لها نوافذ مزدوجة ، النافذة فوق الاخرى ، العالية للدخان يخرج منها والواطئة للهواء ، وعلى جدرانها رسوم هندسية نقشت بالجص فوق ارضية من الطين ، فتبدو في لونيها الابيض والحنطي كأنها خرج فرنسي على قميص عربية . وفي الصدر مجوف مستطيل لا يزيد اذا كبر على الثلاثة الاذرع هو الموقد يجلس عنده رب البيت ويجلس الى جنبه ابنه او اخوه او احد من اهله ، فينشىء الواحد يعمل القهوة والآخر يدق البن في جرن الحجر كبير شبيه بجرن الكبة في لبنان ، الا ان قطر ثقبه لا يزيد كثيراً عن قطر الهاون . وعند رأس الموقد خزانتان واحدة للحطب والاخرى للمواعين هما قيد يد الجالس هناك فلا يضطر ان يقف ليتناول شيئاً منهما . واهم من كل ما ذكر الاباريق ، وهي محور الدعوة وركن الضيافة المادي ، اباريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق ، وقد صفت امام المضيف صفاً متناسقاً من الاول الصغير الذي يكفي ضيفين الى العاشر الذي يسقي مئة ضيف ويزيد . هذه هي القهوه عندهم وهي في شكلها ورسومها ولون جدرانها . وسقفها العالي ونورها اللطيف الذي قلما يمازجه نور الشمس ، تعيد الى ذهنك صورة معبدٍ من معابد الاقدمين فتحدثك بجلال العتق والقدم .

قال هنري دَوْطي في كلامه عن عبدالله البسام : « وكان لجرنه صوت شجي كأنه جرس الضيافة يدعو الناس للقهوة » . الا انهم لا

يقفون في الضيافة عندها، فهم يقدمون بعدها ، في كؤوس من الزجاج، شيئاً من الشاي جزآه الاكبران الحليب والسكر. في بعض الاقطار العربية يسمى هـذا الشاي القهوة الحلوة ويقدم للضيف دائماً بعد القهوة المرة . وهم في الضيافة لا يسرعون ولا يلحون ، اللهم اذا كانت الدعوة للقهوة فقط . اما اذا دعيت للغداء او العشاء فبعد الاكل الاية : واذا طُعمتم فانتشروا . ولا استثناء . لذلك كنت افضل الدعوات للقهوة رغبة في الحديث ، وما اكثر الفوائد والدهشات فيه .

هذا سيدي عبد العزيز بن عبدالله آل سليم وقد اضافنا مرات بين الصلاتين وبعدها اصيلًا ومساء ، لا ليسمعنا حديثه ، وما احلاه ، بل ليسمع حديثنا . وكنت من باب حب الذات والاستفادة اباريـه في السؤالات ، فننتقل من الجغرافية الى الزراعة ، ومن «أمريكة »، كما كان يلفظها ،الى بلاد طي ، ومن الاطبـاء الى الشعراء . كان يكثر ، عافاه الله ، من ذكر الاطباء ، خصوصاً « طبيب السنون » ، ويشكو خلو عنيزة منهم . — قيل لنا يا افندي ان امهر اطباء الاسنان هم في أمريكه . أصحيح هذا ؟ قد نسافر الى أمريكه فنشاهد بناياتها العالية ونصلح اسناننا .

وهذا عبدالله بن خالد آل سليم امير عنيزة وقـد انزلنا في القصر الجديد الذي شُيد حديثاً لعظمة السلطان عبد العزيز ، ومد لنا في بيته سماطاً ازدحمت فيه الالوان ،وانارته من شيم الاماجد البشاشة والوقار . ثم ادهشنا صباح يوم السفر باكلة جمعت بـين الخبيص [1] والعبيط ،

---

(١) الخبيص في نجد هو غير العبيط. الخبيص يعمل من الطحين والماء والسكر. ضع الطحين في القدر وحركه فوق النار حتى تفوح رائحته،ثم ضع الماء والسمن والسكر فوقه وحركه حتى تفوح رائحته ثانية ،فصب عليه السمن وحركه حتى

جيء بها في جفنة كبيرة على كانون من النار لتؤكل حامية. هي الُحنَيْنَة بنت الخبيص والعبيط ، وقد عُملت قرصاً كقرص العيد وغُمست بالسمن والسكر .

والامير عبدالله مثل عمه عبد العزيز مزارع كبير يشتغل ساعات الفراغ في بساتينه . غير انه مثل كل عربي لا يزال ، على شغفه بالزراعة ، اسير تقاليدها القديمة . سألنا عن الآلات البخارية لرفع المياه والري ، ثم قال : سمعنا ان السلطان عبد العزيز يبغي استخدامها في الحسا . فمتى فعل نتبعه ان شاء الله . الناس على دين ملوكهم — وعلى طريقتهم في الزراعة ايضاً .

وهذا عبدالله بن محمد آل بسام يثبت ما اقول. فهو على علمه وادبه وروحه العصرية في كثير من امور الحياة ، لا يتقدم طويل العمر في الرياض . لعبدالله ارض خارج المدينة حفر فيها قليباً عمقه ثمانون قدماً وعرضه خمسة وعشرون بعشرين ، يشتغل في رفع المياه منه عشرة جمال ، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء . كلفه اربعمئة ليرة انكليزية ، ويكلفه رفع المياه يومياً ليرة واحدة في الاقل . اما ثمن الآلة البخارية فلا يزيد على نصف كلف القليب ، وثمن البترول اقل من اجرة الجمال . وعبدالله البسام الذي ساح في مصر والعراق والهند يدرك ما في الاستعاضة بالبخار من الاقتصاد والتوفير والسرعة في العمل ، ولكنه عربي . والعرب في الزراعة على طريقة ملوكهم واجدادهم .

اما في التساهل الديني فبين اهل عنيزة اليوم واجدادهم بون

تابع شرح صفحة ١٢٥

تفوح الرائحة الثالثة . فارفعه اذ ذاك عن النار ودعه يبرد ويشتد ، ثم مد يدك باسم الله الى القدر ولا تكن جشعا . اما العبيط فهو من التمر والسمن كما تقدم .

شاسع . ليس في عنيزة اليـوم من يضرب بالعصا من لا يصلي ، فيسوق الى المسجد كالانعام من لا يلبون دعوة المؤذن . وليس في القصيم كله من اولئك الوهابيين ، امثـــال الاخوان اليوم ، الذين اضطهدوا « النصراني الكافر » هنري دَوْطي وطردوه من البلدة . لم يجد الرحالة الانكليزي يومئذ غير بضعة رجال والوه ، واضافوه ، وساعدوه في محنته ، اهمهم ثلاثة هم امير عنيزة يومئـــذ وعبدالله القنيني وعبدالله البسّام . وقد ذكرهم دَوْطي في كتابه بالخير . نعتهم بالفلاسفة واثنى عليهم ثناء طيباً .

حدثني صديقه عبدالله قال : كنت شاباً يوم جاءَ « خليل» الى عنيزة وكان القنيني اكبر اصدقائـه ومساعديه . فاغضب سكان المدينـــة فسبوه وتجنبوه . قالوا انــه كافر مثل الانكليزي وهـا قد مر خمس واربعون سنة وانا اشاهد التطور عندنا . نعم الفرق كبير . ثلاثـة يومئذ والوا الغريب علناً واكرموه ، ثلاثة فقط . اما اليوم فلو عاد «خليل» الينا لما وجد ثلاثة يسيئون اليه فعلاً او قولاً . اهل عنيزة اليوم يغضبون لأقل اساءة تلحق بالغريب في بلدهم .

بين عنيزة وبريدة الوادي ، وادي الرُّمه ، والنفود . ولكن بين سكان المدينتين فرقاً يكاد يكون ابعـد من الفرق بين البدو والحضر . انما بريدة مدينة تجارية وليس لاهلها وقت لغير الاتجار والصلاة . هي محط رحال البدو من مطير وهتيم وعتيبة وحرب وغيرهم ، يجيئونهـا للبيع والشراء . هي بدوية مادية لا تهتم للادب ولا تسرف في تلبد العقل والفؤاد ، فلا تكرم الغريب ولا تسيء اليه . على انه قلما يسمع فيها تلك الكلمـــة الطيبة ، تفضل تقهويك ، التي هي صلة التعارف والولاء . لذلك تسمى عنيزة باريس ، مع ان بريـــدة اوفر حظـاً

منها في النزول على النفود . ان الرمـــال تفسح لها ولا تناوئها . فلو كانت المدن في انبساطها وانقباضها تؤثر في الاخلاق لكانت بريدة في الضيافة ، في بسط يدهـا وقلبها الى الغريب ، المدينة الاولى في القصيم .

وهي لا تبعد عن عنيزة اكثر من عشرين ميـــلا . مسير النفود بينهما ساعتين ، فنشرف ونحن في اخر ضعس منها على الخبوب التي تطوق بريدة كالقلادة – قلادة من الزمرد في خيط من الذهب لبدوية القصيم . ان الارض لتتضع امامها ، فتخضع لها ، وتقف بعيدة عنهـــا مبسوطة اليدين . لا كُثُب حول بريدة قريبة ، ولا واحات عاليات الجبين – حولها الخبوب . والخب منخفض من الارض فيه ماء وائل ونخيل ومضارب واكواخ . الخبوب خنادق احتلتها قوى السلام اي المياه والايدي الزارعة .

اقمنا في بريدة اسبوعاً نجدد ما وهن من القوى وما نفد من الزاد . فقد اجتزنا في رحلتنا قسماً من بلاد نجد تعددت فيه القرى والمدن وطابت المياه ، وبقي امامنا القسم الاكبر والأوعر ثلاثمئة ميل بـــين بريدة والكويت ، لا مدن فيها ولا قرى ، ولا مـــاء الا في نصف الطريق . وهناك النفود الكبرى ، والدهناء ، ووادي الرمه ، والدبدبه ، كلها اقفار يضيـــع فيها حتى ابناء القفار .

نزلنا في القصر الذي اسسه ابن مهنّا وبنى جناحاً منه ابن الرشيد وآخر ابن سعود . هو قصر كبير ذو ابراج متعددة ، وأفنية رحبة ، وقلاع للدفاع الواحدة دون الاخرى . وفيه بيوت للضيافة ومـــاء ومسجد ، وليس فيه في هذه الايام ، في عهد السلطان عبد العزيز العادل ، غير حامية صغيرة لا يتجاوز عددها المئة جندياً .

كان سُوَيْلم بن سوَيْلم رئيس القصر وحاكم البلدة في غياب الامير ابن مساعد جلوي[1] . وسويلم من الرياض ولكنه ليس من « محلة الشيخ » فيها ، فلا اثر للتعصب الديني لا في اقواله ولا في اعماله . قد انتدبه عظمة السلطان مراراً لمهمات خارج نجد ، فسافر الى سوريا ومصر والاستانة ، وكان في اسفاره من الكاسبين . على ان الامطار لا تنفع غير الارض الطيبة . ما اجتمعت بعامل من عمال السلطان انعم صوتاً ، وألطف حديثاً ، واجمل صبراً من ابن سويلم . كنت احضر مجلسه ساعة يقضي في الناس فيجيئه البدو ، واصواتهم كالاجراس ، غاضبين شاكين ، فيسمع ابن سويلم شكواهم هادئاً ، صابراً ، ويحكم فيهم ذاك الحكم العادل الشديد الذي امتاز به اكثر عمال ابن سعود . على اني لم اسمعه مرة ينتهر البدو او يغلظ لهم الكلام . ولا سمعته مرة رفع صوته في الحديث او في التوبيخ . كأنه صيني لا عربي .

— سرق البعير يا لامير . ابْدوي لص ! والله عاينته بعيني . ابْدوي قواد !

فيسكته الامير قائلاً : اقصر الله يعافيك . فان لم يسكت يعيد الكلمة ولا يغير صوته او لهجته . بل يضرب الارض بعصاه مثل السلطان عبد العزيز ويقول : اقصر الله يعافيك . ما اجملها كلمة تسكت بها الصيّاح الشتام . ولكنها قلما تفيد اذا لم يكن عند صاحبها شيء من تلك القوة المعنوية الروحية التي تجعل كلماته الناعمة اشد وقعاً على البدو من السيف .

---

(١) هو عبد العزيز بن مساعد آل جلوي عينه السلطان بعدئذ اميراً في حايل وجعل المنطقة الشمالية كلها بما فيها القصيم والجوف وخيبر تحت امرته .

الدهناء

الدليل واركان حربه — عين ثميد — الاسياح—لا ماء الا في الحفر — النفود الكبرى— جمال الضعوس في الشروق والغروب — الحمى والنفود والذلول الجموح — الدهناء — «كبّر يا بدّاح» . — سكة زبيده — البريتسه — بقعة خضراء — نرعى مع الابل — الفرق بين الدهناء والنفود — بعض النبات في الدهناء — مسفر ابو العجايب — دميم كريم — عبّه دكان — مرآة ومسواك وعود الطيب — مسفر يبر بوعده — ليلة راقصة — « حنّا اهل العوجة » — هومة الاخوان — لى لى لى لى لى لى ؟ فصل الحكايات — حدثنا هذلول - بداح يقص قصته — حكاية حمود — سالم والسند الذي معه على الملك حسين — ساعة من النوم ثم صوت هذلول : قوموا : قوموا صلوا — هذلول يعلم بداحاً اصول التوحيد واركان الدين- بداح يعلم هذلولاً اية العيون - شروط الصلاة — نواقض الوضوء - الحياء شعبة من الايمان — مسفر وبداح يتشاتمان .

ما احتجنا الى دليل في الطريق من الرياض الى بريدة مع اننا عبرنا ثلاثة ابحر من النفود . ولكنها بحيرات رمل اذا قسمناها بالعروض التي لا يجتازها حتى العرب بدون دليل خبير : واذا كان هـذا الدليل زكرتاً فله بعد امير الحملة المقام الاول ولا يمشي الا ومعه اركان حربه. نفعنا الله بهم وبه . فقد اصحبنا سويلم بن سويلم برجل من مطير ساح في الامصار ، ورافق الكبار والصغار ، وحارب مع الترك في الحرب العظمى ، ثم مع الشريف ، ثم مع ابن سعود . رجل رهيب له صوت يرجف حتى البدو ، وخطوة كانت تذكرني ببيت المتنبيء :

يطأ الثرى مترفقاً في تيهه فكأنه آس يجس عليلا

اما اركان حربه ُجعَيثن[1] ومبارك وابراهيم فمن العربان الشجعان ابناء الفرّ والطعان . على اني خشيت المنافسة بين الدليل والامير . ولولا حكمة هذلول واتضاعه ، ورغبته في راحتي قبل كل شيء ، لما استقام الامر يوماً واحداً .

كان يضحكني المطيري ، وشر البلية ما يضحك ، عندما ننيخ للمراح . فيقف اذ ذاك جانباً وقد التف بعباءته ، وطرح احد طرفيها على كتفه ، كأنه يمثل على المسرح دور امير خطير . ثم يصدر اوامره :

– يا مبارك ساعد مسفر في الذبيحة : يا جعيثن هات الاوتاد . رح يا حمود ارعى الركايب . وانت يا حمد ساعد في نصب الخيمة . القرَب يا بدّاح . الحطب يا ابراهيم ...

وكنت ارى هذلولا ، بارك الله فيه ، يشتغل وسالم في رفع الشراع ويساعد الجميع دون ان يصدر امراً واحداً . بذا يمتاز الرجال بعضهم عن بعض ، وبذا يفلح العاملون ، ويفشل ، بالرغم عن الخبر والاقتدار ، اولو العجب والادعاء .

كانت طريقنا من العارض الى القصيم شمالا بغرب ، فاستقبلنا الشمس في بريدة وسرنا منها مشرقين الى الكويت . ولا ماء الا في الحفر . ما ما ادركت خطر الطريق ووعورة المسلك الا بعد التأهب في بريدة ؛ اذ خرجت القافلة منها وقد ازدادت رجالا وركائب . فضلًا عن اهتمام

(١) ُجعيثن تصغير جعثن وجعثن في محيط المحيط اصول الصليان . والصليان بقلة واحدتها صليانة . ولكن جعيثننا يخطىء القاموس . فقد اخبرنا ان امه ولدته عند جذع اثلة ، وان جذع الاثل يدعى جعثن ، وهو قوي سوي ، فسمي تيمناً به ُجعيثن .

ابن السويلم وقد رافقنا الى خارج السور فأوصى الدليل وألحّ على الامير بارسال كلمة اطمئنان بعد ان نجتاز الدهناء .

ملأنا القرب وبعض الاروية [1] من ماء عين ثميد خارج المدينة ثم ملأناها ثانية كلها في اليوم الثالث من عين فهيّد في الاسياح واطللنا من الاسياح على العروض ، اي النفود الكبرى بين القصيم والكويت ، ووراءها الدهناء ، ودون الدهناء المفازات . وكلها على اتساعها اجف من الاسفنج في دكان العطار . لا ماء الا في الحفر ! حجب الله عليك يا سيد هاشم كم ذكرناك في العروض وغبطناك وانت في العارض . لا ماء الا في الحفر . ودوننا ودون الحفر جبال وبحار من الرمال ، بيد دونها بيد ، وسبعة ايام من السير ، والحمى تعود يوماً بعد يوم !

ان العروض اي النفود الكبرى بين الاسياح وقِبَاء [2] هي عدة جبال من الرمل تمتد طولاً من الشمال الى الجنوب وعرضاً من الغرب الى الشرق . وهي تدعى دعوصاً ، علو الدعص بين الخمسمئة والسبعمئة قدم ، وبين

---

(١) القربة وطب من الجذع اي جلد البهائم الصغيرة سناً يحملها الراكب معلقة بالرحل . ولكل راكب قربة . والاروية جمع روي في القاموس الشرب التام . والرواء الماء الكثير المروي . اما في نجد فالروي هو الوطب الكبير من جلد الابل او البقر يسع مقدار خمس قرب من الماء . وهم يحملون في الاروية غالباً ماء الطبخ والغسيل وكل رويتين حمل جمل .

(٢) قبَاء القاف تلفظ جيماً وفاء الاسم تسكن في نجد فيقولون أجباء . فيسمعها الرحالة الاوروبي فيكتبها كما يسمعها ، فينقلها الكاتب العربي عن الكاتب الاوروبي فتجيء مكتوبة جبه او جابه او جيبه . ومثلها الدهناء تلفظ ادهَنا فكُتبت في الخرائط الاوروبية دهانا Dahana وغيرها من الاغلاط في كتابة الاسماء باللغات الاجنبية ثم في نقلها عنهم الى اللغة العربية .

كل دعص وآخر نحو اربعة اميـال نزولاً وصعوداً . احد عشر دعصاً هي ، بل احدى عشرة كربة ، كل واحدة اشد من الاخرى . هاك افقاً امامنا يعلوه افقان او رأسا دعصين بعيدين . وفي كل افق رسول من الذهب الوهاج يدعونا لنعيم الخيال بل لخيال النعيم .

ما اجمل ذهب النفود في الشروق وفي الغروب ، بل مـــا اجمل ارجوانه اذا مال الظل وتعرج في الاصيل . وما ابهج ليل النفود وقد افترشت رملاً ناعماً كالحرير ، وآخيت نجماً دانياً في نوره منك ، كأنه يهمس في اذنك كلمات السكينة والحب والسلام . وما اروع اشكال الرمال وقد كونت اهراماً وقباباً وفيها امثلة الصراط وقـد شحذتها الرياح فامست كحد السيف .

ما اجمل — ولكن — كانت ذلولي من العـــارض الى القصيم سهلة المراس ، لطيفة المزاج ، قصيرة الخطى ، خفيفة الترجح ، فيرتاح فوق سنامها من لم يألف ركوب الجمال . ولكنها انقلبت عليّ قبل ان تصل الى بريدة ، فشرس خلقها ، وثقلت خطواتها ، او انهـــا كانت خبيرة بطريق الكويت ففضلت الرجوع الى الرياض .

اما الذلول التي ابتاعها ابن السويلم في سوق الابل ببريدة ، وهي اكبر سوق لبيع البعارين بالمزاد في البلاد العربية ، ووسمها بالنار على رقبتها بوسم ابن سعود ∞ وقدمها لي قائلاً : احسن ما في السوق ، فقد كانت حادة المزاج ، صعبة المراس ، طويلة الخطى ، سريعة السير . فيضطر الراكب ان يعالجها دائماً بالرسن والخيزران ، فلا يذهل هنيهة عنها حتى في منتصف النهار ، في تلك الساعة ، ساعة الهاجرة ، حين يتسلل النعاس الى الجفون فتلقى الارسان على الغوارب ويستسلم الركب الى النوم . اما هذه العمانية فلا تؤمن اذا قيل لها : حبلك على غاربك .

لم يكن ذلك ليروعني وقد تمرنت وتصلبت لولا امران . فما همني طول خطواتها في الارض المنبسطة اليابسة ، وما همني مزاجها في الايام التي انفردتُ فيها بالرحل فكنت راكباً وحدي .

ولكن الحمى والنفود — لا اظن ان الاثنين يجتمعان لكثير من الناس حتى في الجزيرة العربية . ومتى جاءت الحمى في الدرجة الرابعة من الخطر ، وكانت النفودُ العروضَ ، وكانت الذلول عمانية جموحاً ، فماذا ينفع الرسن باليد او على الغارب ، وماذا ينفع الخيزران . ان اصعب السير على الركب والركائب هو السير في العروض ، ولا اثر البتة لطريق فيها ، ولا مهرب من امواج رمالهـــا . تصعد الذلول في الدعص الى رأسه وهي تربخ فتغوص حتى الرسغ ، فتجيء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات ، فتئن حتى الرحالُ من شدة الحال . اما في النزول ، فتنتقم من الدعص الذلول فتروع هاوية غاوية ، وهي تغوص في الرمل حتى الركاب ، فتجيء الخطوة مقدار خمس خطوات ، وفي كل منها للراكب خمس نكبات . زد على ذلك ان الدليل المطيري كان يعبر المنحدر في خط مستقيم دائماً ، فلا يهمه الرفيق المحموم ، فتتبعه الركائب غائرة متدهورة اذا لم يكبح جماحهـــا . وكيف يقوى على كبح جماح ذاوله من كبحت جماحه الحمى ؟

لم تنفعني قوة الارادة في تلك الايام ، ولا ما كنت اتدرع به من الكينا صباح مساء . فقد رميت بنفسي على الرمل مرتين في العروض وانا انتفض من البرد ، فانتظر مجيء الحمى ، التي كانت تتبـــع البرد ، لنستأنف السير . نعم ، لنستأنف السير . فهل نقف لنجـــامل الحمى ورفيقنا الاكبر شبح الموت ؟

ليس في ما اكتب الآن شيء من تأثير تلك الايام . انما الحقيقة

كل الحقيقة في ما اقول . الماء معنا لا يكفي الا اياماً معدودة . فاذا انخنا كل مرة شرفتنا الحمى لنجاملها حتى تزول ، ينفد ماؤنا قبل ان نجتاز نصف الطريق . ولا مـــاء الا في الحفر ! اركب يا رجل وتوكل على الله . لا اظنني توكلت في تلك المحنة الفريدة على غير الله . بل كنت احس ، استغفرك ربي ، انك وان كانت الحمى رديفي ، راكب امامي قابض على زمام الذلول وزمامي .

يا ذلولي حجيتله ذلول ابن عيد قربتي قطرت والمعشى[1] بعيد

وما كان ابعده في ايام النفود ، في ذاك البحر الرملي الذي تعالت امواجه جبالاً وهبطت جباله امواجاً ، فضاق في اجتيازه حتى صدر الدليل المطيري . ما كنت اظن ونحن نخوض عبابه ان له نهاية تنتهي عندها الشدة والعذاب . ولكن الدليل عندما اطللنا على الافق الاعلى، فاه بكلمة كانت منه الكلمة الوحيدة التي ابهجتني : هناك ظهر العروض ومنه نعاين الدهناء .

ظهر العروض ، آخر ضلع من ضـــلوع الاسياح ، آخر دعص من النفود ، آخر درجة من سلم التعذيب ـ شكرنا الله ثم شكرنا الله . وعندما اطللنا على الدهنـاء تنفس الربع كلهم الصعداء وأمر هذلول بالتكبير : كبّر يا بدّاح . فراح بدّاح يدرهم ويصيح : الله اكبر ! الله اكبر ! وكانت ساعة الغروب فانخنا فوق السهل الذي يمتـد بين العروض والدهناء . وكنا قد عثرنا في ذاك النهار على اثر من طريق قديمة هي سكة زبيدة ، اي الطريق التي أمرت بفتحها وتعبيدهـــا للحجاج زبيدة امرأة هارون الرشيد ، فتيمّنا بها وكانت فاتحة الخير الى يومين .

....

(١) المعشى مكان المراح للعشي .

اكرم الله مثواك يا ستي زبيدة وجعلك من المقربين — اذا كان لم يفعل حتى الآن . ويا ليت في المسلمين اليوم اختاً لك صغيرة تجدد في الاقل الطريق التي شُرفتْ باسمك . فالبرك العديدة التي بنيت في الصحراء في سبيل البر والتقوى ، لتروي الانسان والحيوان يرجع اليك فضل بنائها .

لم افهم من مبارك قوله هذه البريْتْسَه [1] حتى وصلنا اليها ، فالفيتها بركة لماء المطر بل صهريجاً متهدماً مردوماً . واذا صح فيه التصغير اليوم فلا يصح ذلك في ما نبت هنالك من الاعشاب ومن شجر الطلح والسلم .

ان ابهج ما يشاهد الانسان في الصحراء بقعة ارض خضراء . ولكن الحيوان ، ذا السنام كان او ذا القرون ، يشارك الانسان في ذا الابتهاج . وقد تبارينا كلنا حول البريْتْسَه التي يدوم اخضرارها طيلة السنة . ان احسانك يا ستي زبيده خالد البركات ولو في زاوية من القفر ، خالد هو ما دامت الارض خالدة . انخنا الركائب لترعى في ظلال احسانك . وكنت انا الحيوان الناطق المفكر اول من فاه باسمك شكراً واعجاباً . فلقد لقيتُ في ذلك المرعى كما لقيتْ ذلولي ما ألفته العين والمعدة .

جاءني مبارك وهو نباتي الحملة ببضع وريقات خضر يقول : هذا الخنبصيص . هي عشبة صغيرة فيها حموضة يأكلها اهل نجد ويجعلونها في الاقط . وكنت قد سئمت اللحم لانه في الثلاثة الاشهر التي مضت كان يصبحني ويمسيني كل يوم دون سواه ، فجعلني احن الى ورقة خضراء حنين البعير الى العرفج والارطى . ثم جاءني مبارك ، بارك الله فيه ، بعشبة اخرى سال لمرآها اللعاب ، وهاج في القلب ذكر الوطن

(١) تصغير بركة والكاف تلفظ تس .

والاحباب . فيا ما احيلاها نبتة تزرع في لبنان حول البيوت، وتسييج من غزوات الدجاج بالشوك . الرشاد ! جاءني مبارك بالرشاد . وهو في بادية نجد نفسه في لبنان ، لا يتغير اسماً ولا طعماً .

تبعت مبارك الى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت ارعى فيها كالبعير ، بل رحت أدبّ على الاربع مثل نبوكدنصر ، آكل الحشيش ، واشكر الله ثم الست زبيدة ، فانتعشتْ وابتهجت حواسي كلها ، فصرت اظن ان الرشاد والخنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت دونه الكينا. على انني، في رجوعي الى الاصل ولو ساعة ، اصلحت ليومين ما افسده الوقوف على الاثنتين .

وها كم الدهناء تبسط لنا النمارق البيضاء وترحب بنا فينبغي للقارىء ان يعرف بعض الشيء عنها قبل ان نصل اليها . تختلف الدهناء عن النفود باشياء — بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي فتنساب كالحية او تتعرج كالنهر شرقاً بجنوب حتى تصل الى الربع الخالي — بلون رمالها وهو ابيض الا في اطرافها — بقلة كثبها وتجوفاتها فلا يتجاوز اعلى كثيب فيها المئة قدماً — بتنوع اعشابها وغزارة المرعى فيها . زد على ذلك انها قليلة العرض جداً بالنسبة الى طولها ، والعرب لا يقطعونها الا في الاماكن التي هي اقل عرضاً من سواها . لذلك هي اسهل سيراً وايناس مشهداً من النفود .

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم ويخرجن من دارين بجر الحقائب

مررنا بها خفاف القلوب في الاقل فقطعناها من الغرب شرقاً الى الكويت بعد ان قطعنا من الشرق غرباً الى الرياض . وكان يومئذٍ بدّاح رفيقنا ودليلنا فصاح ثانية يمثل البدو عندما يصلون اليها

طالبين الحيا[1] وابيك حنّا برأس الدّهَنا ! واطلق مبارك صوته ببيته المحبوب :

يا موفقين الخير يا اهل الأشدّهْ   معكم وزين (عديل) الروح الله يردّهْ

سرنا في سكة زبيدة سير الهون اكراماً للركائب . وكيف لا نكرمها والارطى في هذا المكان من الدهناء اخضر جديد . اشرأبت اليه الاعناق ، ووقفت عند كل شجرة منه تتفكه به بعد ان كادت تتخم من العرفج والعُلقة والشّمام[2] . ثلاث ساعات كل ساعة منها عيد لذوي الاربع وذوي الاثنتين معاً . انخنا فصلى الربع المغرب ومدوا السماط للعشاء ، ثم جلسنا في حلقة حول النار وطالبنا مسفراً بما وعدنا به مراراً .

ومن هو مسفر وما هو وعده؟ هاكالخبر ولا اظنكتأبى التعرف الى الرجل وقد تشاركني في حبه . مسفر هو مدير الحملة[3] ، ورئيس

(١) الحيا اي المرعى . وفي القاموس الخصب والمطر . والعرب تسمي النبات حيا لانه يتسبب عن المطر .

(٢) الأرطى شجر ثمره كالعناب ويسمى ايضاً في نجد عَبَلاً لان ورقه كورق الصنوبر مفتول غير منبسط . وهم يستخرجون منه ومن قشره صباغاً اصفر . العُلقة شجرة غصنها ابيض وورقها دقيق تبقى في الشتاء فيعلف بها الابل حتى تدرك الربيع. الشمام نبت ضعيف ورقه شبيه بورق النخل. ومن نبات الدهناء العَرْفج وهو للابل كالباقية للخيل وقيل هو القتاد لشوك فيه .

(٣) تقسم القافلة الى قسمين الحملة وهي الجمال التي تحمل الحقائب والزاد والركائب التي تحمل المسافرين . وغالباً تسير الحملة قدام الركائب فتسبقها بساعة او اكثر لانه لا يؤذن لاصحابها بالدرهام خوف التكسير في ما يحملون ، فنلحق بها ونجتمع كلنا في المضحى وفي المراح .

الخدم ، والعين الكالئة للزاد ، واليد الذابحة العاملة في سبيل البقاء . مسفر هو النفاخ الطباخ ، راعي الفأس والفراخ ، حامل الخناجر والسياخ . وهو في شكله نكتة مضحكة قد لا تليق في مجالس المتمدنين وفي وجهه اقرب الى الرباح منه الى يوسف الحسن . وجه مسفر هو ما يصفون في نجد بالعَفِن وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء انفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول الى اذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد اليه ؟

اما في لبسه فهو آية في البلاغة والابداع لا يعرف أنجدي هو ام حجازي ، أيماني ام عراقي . بل لم يكن عربياً في غير الغطرة والعقال . اضف الى ذلك حذاء مرقعاً تخض رجله فيه ، وسروالاً كان ابيض ، لا نظنه غُسل في عهده او في عهد ابيه ، فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركي ، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والسياخ . الا انه عندما يركب على بعيره الاسود : فوق احماله ، يبدو ككيس من الاكياس .

هاك الرجل في ظاهره . اما في باطنه فسبحان رب الكائنات ، النافخ من روحه حتى في عجائب مخلوقاته . ان في ذاك الوجه العفن مبسماً ولا مبسم الحسان في جاذبه ، مبسماً يوقفك ويغريك ، ويضحكك ويلهيك ، مبسماً ينسيك الفم منه والانف والجبين ، بل ينسيك الرباح ، وضلوع الاسياخ .

اي بالله . ما كان في رجالنا ، وقلما تجد في الرجال ، من هو اخف روحاً . وادمث خلقاً وألطف ذوقاً ، وأرق شعوراً ، واسرع الى الخدمة يداً من هذا الدميم الكريم . فقل : تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ،

فهو اذا مسخ الانسان قرداً يهبه من الجمال الروحي والخُلقي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين .

ان المعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان بما حوت . أتبغي خيطاً وابرة وزراً ؟ أتبغي ملحاً او بهاراً او شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ أتبغي رقعة تمسح بها فنجاناً او تضمد بها جرحاً ؟ أتبغي قلماً وورقاً للكتابة ؟ أتبغي مسواكاً من الاراك او شيئاً من الكحل ؟ سمعاً وطاعة . لم يدهشني عندما رأيته اول مرة يكتحل لان اكثر رجال العرب يكتحلون وقاية للعيون . ولكنه ادهشني ذات يوم اذ كنا حول النار نشرب القهوة ، فتناول مسفر حجراً وضع عليه بضع جمرات ، ثم مد يده الى كيس في « دكانه » فاخرج علبة صغيرة ، ففتحها واخذ منها باطراف انامله ، ورشه على النار . البخور ، عود الند ، الطيب ؟ هو وحده كان يحمل هذه النفيسة من نفائس الحياة ونوافلها ، فيطيبنا دائماً بعد الطعام .

على اني دهشت الدهشة الكبرى ولم اتمالك ان ضحكت عندما اشار بالسبابة الى رأسه كأنه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم اخرج من عبه مرآة صغيرة قدمها لي لأرى وجهي وازين — احكم وضع — عقالي قبل الرحيل . هوذا حقاً اقبح خلق الله صورة واجملهم نفساً وذوقاً . ولا اظن انه كان يحرص على شيء في كل ما يحمله حرصه على المرآة ، فكان يتسلى بها وهو راكب فيتأمل طويلاً ذاك الوجه الذي وصفت .

ما السر في ذلك ؟ هل يرى في وجهه ما يراه الناس ام ما يراه الله وقد تساوت في نظره المخلوقات جمعاء ؟ أو هل الرباح ، ذاك المخلوق الاولي فيه ، وقد اعجب بهذا الشيء الذي يعكس

وجهه فكان مسحوراً ! ما قول سادتنا العلماء ، علماء الجسد والروح ؟ أفلا يأخذهم العجب من الرجل الدميم ، الدميم الى حد يضحك ويبكي معاً ، الذي يحمل السكاكين والخناجر ولا يضع واحدة منها في قلبه عندما يرى وجهه في المرآة ؟ ولكنه على ما اظن حب الذات يقينا ويقيه شر النفس اذا ما رأت العين منكرات التكوين الظاهرة . أجل، لولا حب الذات ، ذاك الغرس المبارك الذي غرسه الله في كل حيوان صامت وناطق ، لكان الانتحار بسبب التشويه الخلقي وحده اكثر شيوعاً من لعب القمار .

استغفرك ايها القارىء فقد اسهبت . ولكن غيري ألفوا روايات ابطالها اشخاص مثل مسفر اختلقوها : ولا اظن ان « كاليبان » و « غونيبلاين » يتسابقان الى الصدر اذا جمعتهما ومسفراً المجالس . بيد ان « كاليبان » واخاه خيالان من خيالات شكسبير وهوغو . اما مسفر فحقيقة هو من حقائق هذه الرحلة ، كان يطبخ لنا دجاجة كل يوم ، ويطيبنا بعود الند بعد الطعام ، ويحدثنا عن امرأته وعياله في سدوس (١) هاك الرجل ، وهاكه مبراً بوعده . وما الوعد ؟

عندما كنا في شقرا رحنا ذات ليلة نتفقد مسفراً و « خوياه » في منزلهم ، فسمعنا ونحن داخلون الى البيت صوتاً شجياً ينشد نشيد الاخوان ، فأطللنا من الشباك فاذا مسفر داخل والسيف بيده يصحب « الهوسة » برقصة رائعة . سألناه بعدئذ مراراً ان يرقص ويغني فأبى واعتذر . وعندما خرجنا من بريدة كنا نعيد سؤالنا كل يوم فيتذرع بالشغل او بالتقاليد التي تحرّم الغناء في نجد . على انه وعدنا برقصة

(١) سدوس قرية قديمة من قرى العارض بنجد . سميت سدوس نسبة الى قبيلة من بني حنيفه كان يقال لهم بني سدوس

الاخوان عندما نصل الى الدهناء . — وها قد اجتزنا الدهناء والحمد لله ، وكان الحبور رفيقنا طيـــلة النهار . فهلا استهويته يا مسفر بصوتك وسيفك ، فيظل معنا ليحل محل القمر في ذا السمر .

كنا حلقة حول النار امام الشراع ، وكانت الركائب باركة في حلقة اخرى حولنـــا تجتر قانعة مطمئنة ، وكانت السماء سافرة صافية الجبين فتلألأت كواكبها سروراً لتغيّب سيدها القمر ، فزاد الكلام كذلك في نور نهارنا . — الحطب يا ابراهيم . وكان ابراهيم معاون مسفر الاول في النفخ والطبخ جالساً عنـــد ركمة من حطب العرفج والارطى ، فيمد يده وراءه ثم يبسطها فوق النــــار ، فتقهقه طرباً وتزداد تأججاً . وكان حمد العبد وهو يقلب في حضنه مقـــلاة البن ، وهذلول الذي اتخذ صحناً من النحاس دفاً ، وبداح وقد صفق كفاً على كف ينادون مسفراً ويحرضونه . — قم يا مسفر . اســـفر يا مسَيْفر . وكان كوكب السمر قد دخل الخيمة فخرج منها والسيف يلمع بيمينه والخنجر بيسراه . فوثب وثبة ثم اخرى الى وسط الحلقة ، وطفق ينشد نشيد اهل العوجا اي اهل الرياض ، وهو ينتقل نقلة خفيفة بطيئة ، ويتلوى من وسطه الى اليمين والى اليسار كالثعبان .

تَارَا تَتَآتَه تَتِمُ تُتِم — تَارَا تَتَآتَه تَتِمُ تُتِم
حنا اهل العوجا مروية السنين (نروي سنان الرماح)
عاداتنا سهُج العدو بنحورنا (ان نهجم على العدو ليلاً)

كان يقف عند كل بيت بينا حمد وهذلول يردان عليه بالنحاس ، وهو يهز السيف والخنجر هزة بطيئة خفيفة ، فيها ربَض الهول كأنه يتأهب للوثوب . ثم عند البيت الاخير يثب فوق النار وهو يصيح : لي لي لي لي ليلي ! فيجيب الربع حي على ! حي على ! وحمد وهذلول

يدقان على النحاس :

تَارَا تَتآته تَتمُ تُم — تَارَا تَتآته تَتمُ تُم

وما هذا كله الا التمهيد لهوسة الاخوان : هبت هبوب الجنة اين انت يا باغيها. غيّر مسفر نقلة رجله زنة وسرعة، ورمى السيف والخنجر في الهواء، فتناول الاول باليسرى والثاني باليمين. — حطب يا ابراهيم. كفّ يا اخوان.

هبت هبوب الجنه
تَارَا تَتا تَه تا تُم تُمْ
اين انت يا باغيهــا
تَارَا تاتَه تا تُم تُمْ

لعب الهوس بالرجال، ووثب الهول من النصال. — هبت هبوب الجنة! فتغير الوزن من السريع الخفيف الى الاخف والاسرع حتى امسى كرقص الدراويش. فاغمد مسفر اذ ذاك الخنجر ونزع الغطرة والعقال عن رأسه، فرمى بهما في النار، فصاح الجميع : اين انت يا باغيها!

ثم اعتزوا مرددين : اهل التوحيد، اهل التوحيد! حتى خمدت النار، وقد ذهل ابراهيم في هوسه عن وظيفته، فكان الختام الدخان والظلام.

حطب يا ابراهيم. وكان الفصل الثاني فصل حكايات، فقص هذلول خبر وقعة كانت له مع الجن في وادي الدواسر، فقتل منهم اثنين وجرح كثيرين. وقص مداح قصة غرام هو بطلها، وهو الفاسق الاكبر بشهادة نفسه، فاخبرنا كيف اخبأته الحبيبة في الصندوق عندما عاد زوجها الى البيت وكان قد خامره منها الريب فسبها، فسبته،

فطلقها ، فشكرت الله ونادت الخادم حالاً ليحمل صندوقها وهي تبغي العزوبة — « فحمله وانا فيه ، والله بالله ، وهي وراءنا تضحك . » — وبعد ذلك يا بداح ؟ — لا تسل يا هذلول .

وحدثنا حمّود قال : كنت حاملاً كتاباً من الشيوخ الى امير عنيزة فنوخت في شعيب بوادي حنيفة لأتعشى . كنت وحدي وكانت الليلة مظلمة . عقلت الذلول ، وجمعت الحطب ، وشببت النار ، فسمعت في الحال صوت امرأة تولول وتصيح : احجب علينا حجب الله عليك فتلفت فعاينت تحت الشجرة وجهاً كالشمس ، وحياة الله ، وشعرها طويل واسود كالليل . ظهر الوجه في النور لمحة بصر واختفى . فعدت الى النار اشبها ، فعادت تصيح : لا تشب النار الله يجيرك من النار . احجب علينا استرنا . هي عروس الجن ، وقد كانت لطيفة كريمة ، فدنت من حمود وقبلته وهي ترجوه ان يسير في سبيله ويتركها وشأنها في ظلمات الليل . فاستجاب حمود طلبتها واسرى تلك الليلة كلها وهو يشكو من حرق في وجهه . — والله بالله يا استاذ حبتني (قبلتني) هنا وكان فمها كالجمرة . وحياة الله اقول الصدق .

ثم حدثنا مسفر فقص خبر غزوة من الغزوات التي كان فيها وختمها قائلا : والله ذبحت اربعة عشر منهم ابن طواله حي موجود . فضحك الربع وكانت ضحكة بداح طويلة مستنكرة وقرت في نفس مسفر ، فصاح وقد استل سكيناً من سكاكينه ! اسكت او اذبحك بالله . فقال بداح وهو لا يزال يضحك : مثلما ذبحت ابن طواله . فوثب مسفر فوق النار يبغي دم العجماني ، فصده هذلول وسكن روعه ثم أمر بداحاً ان يقدم له بيده فنجان القهوة .

جاء دور راعي المعاميل القهوجي سالم ، سالم الرزين السكوت ،

وليد حايل وربيب الامصار ، سالم الطواف الذي طاف في الحرب العظمى البلاد العربية كلها من اقصى الاقطار الى اقصاها ، من اليمن الى شرق الاردن ومن البصرة الى الشام . – هات حكايتك يا سالم .

والله يا استاذ ما عندي حكايات . عندي كمبيالة على الملك حسين بمئة وخمسين ليرة انكليزية ابيعك اياها بعشر روبيات .

– وكيف تقول ما عندك حكايات ؟ هـــات حكاية الكمبيالة .

فاخبرنا سالم انه كان جمّالاً في جيش الامير عبدالله يحمل الماء عندمـــا زحف بعد الهدنة من المدينة على ترَبة . وعندما وصلوا اليها ودخلهـا الامير صباح ذاك اليوم منتصراً ، سأل سالم سموه ان يأمر بالاجازة والحساب لانه يبغي الرجوع الى بيته وعياله . فاعطاه الامير حوالة على جلالة الملك ابيه بحسابه اي بمئة وخمسين ليرة فأخذ الحوالة سالم وراح ينحر الطائف ليزور صاحباً له فيها. فاعترضه بداح يصلح الكلمة فأنثها. هي صويحبة يا استاذ . انا اعرفهـا . لم يأبه له سالم فاستمر في قصته . اقام بضعة ايام في الطائف ثم نزل الى مكة. وكان ان الاخوان انتصروا على الامير ليلة يوم النصر ، وافنوا جيشه كما هو معلوم ، وحمل النجاب خبر النكبة الى جلالة الملك. فلما وصل سالم يحمل الحوالة قال له صاحب الجلالة : الله يعوض عليك وعلينا يا ابني ، خسرنا كل شيء .

انتصف الليل ونحن لا نزال في فصل الحكايات ، والابل حولنـا لا تزال تجتر قانعة مطمئنة ، وسالم يعمل القهوة ثم الشاي ، الابريق تلو الابريق ، فأرقنا وما مللنا ، ولا كنا من القانتين . ثم نهضنا باكراً قبل الفجر الكاذب وكنت اول من سمع هذلولاً ينادي على عادته . قوموا – قوموا صلوا . بدّاح ، سالم ، حمود ، مبارك ، جعيثن ، قوموا قوموا صلوا ... اذّن يا مِسْفِر .

— الله اكبر . الله اكبر ... حيوا على الصلاة ... الصلاة خير من النوم .

ثم تقهونّا وسرنا في سحر برده شديد يخرق العظم ، فانخنا بعد ساعة لنشب النار وندفىء ارجلنا ، وكنت انا في جزمتي اسرع منهم ، وهم في النعال شبه حفاة الى ذلك . لا اظن في البلاد العربية من قوم اصبر على الشدة واثبت في المشقات من اهل نجد .

استأنفنا السير وهذلول اميرنا وامامنا يعلمنا دين التوحيد . — يجب على كل مسلم ان يكون عالمـــاً بثلاثة اصول . اولاً : ان الله خلقنا ورزقنا وهدانا برسول ارسله الينا . فمن اطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار . واستدل على ذلك بقوله تعـــالى — وذكر الآية . ثانياً : ان الله لا يرضى ان نشرك معه في عبادته احداً لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى — ذكر الآية . ثالثـاً : ان من اطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له مـوالاة من حـادّ الله ورسوله . وذكر الاية دليلاً على ذلك . فاذا قيل لك ما الاصول الثلاثة ؟ فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم . واذا قيـل لك من ربك؟فقل ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين وهو معبودي ليس لي معبود سواه . واذا قيـل لك بمَ عرفت ربك ؟ فقل بآياته ومخلوقاته . ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . ثم سأل بداحاً . ما هي اركان الاسلام ؟فاجاب بدّاح البجاح : اني اعرفها يا هذلول . اذكرها انت فارددها . فقال هـذلول الطيب القلب الورع التقي : اركان الاسلام خمسة : شهادة ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله . فنشأ بداح يعد فقال : واحد . واقامة الصلاة . — اثنين وايفاء الزكاة . — ثلاثة . وصوم رمضان — اربعة . وحج بيت الله الحرام . — تمام ،

تعرفها والله .

ثم قال بداح : وانا اسألك اتعرف آية العيون ؟ فاجابه الامير : وما هي ؟ فنطق بداح بالاية التي كنت قد سمعتها مراراً من فيه ولا اظنه يعرف سواها . — كل عين باكية يوم الحشر الا ثلاثـــاً . عيناً صدت عن محارم الله ،وعيناً دمعت من خشية الله ، وعيناً باتت تحرس في سبيل الله .

— علمتني يا عجماني . جزاك الله خيراً . وما هي شروط الصلاة ؟

— اعرفها . اولها الاسلام .

— الاسلام . وثانيها ؟

كملها يا لأمام فاجاب هذلول : الاسلام والعقل والتمييز — وكان بداح يرددها وراءه — ورفع الحدث ، وازالة النجاسة ، وستر العورة، ودخول الوقت ، واستقبال القبلة ، والنية . فشكره بداح ثم قـال : وما هي شروط الوضوء ؟

— غسل الوجه ومنـه المضمضة والاستنشاق ، وغسل اليدين الى المرفقين ، وغسل الرجلين الى الكعبين ... الخ . ثم قـال : وما هي نواقص الوضوء ؟ فاجـــاب العجماني : انا اعرفهـا . علمها للربع يا لأمام . فنشأ هذلول يعددها . هي ثمانيـة : الخارج من السبيلين ، والخارج الفاحش النجس من الجسد ، وزوال العقـــل ، ومس المرأة بشهوة ، ومس الفرج باليد ، واكل لحم الجزور ، وتغسيل الميت ، والردة عن الاسلام اعاذنا الله منها . — والله يا هذلول الشرط الرابـع ينقض وضوئي دائماً . قل لنا ما هي اركان الايمان ؟

— اركان الايمان يا بداح ستة . ان تؤمن بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . والايمان يا بداح هو

بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله الا الله وادناهـا اماطة الاذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان .

هذه الشعبة من الايمان لا يعرفها بداح . الحياء عدو له .

الصوت الذي نطق بهذه الكلمة صوت مسفر .

فقال بداح : صدقت يا مسيفر السدوسي . ولكن عندي اول الايمان واخره ، اعلاه وادناه . ولولا حرمة الاستاذ لبرهنت لك اني مؤمن فازيلك ، يا شر الاذى ، عن الطريق .

— بر ر ر ر والله بالله ! واستل مسفر خنجره وساق بعيره على بداح . فوكز هذلول ذلوله وكرّ فاستوى بين الاثنين .

— وهل هذا من الايمان ؟ الله يغربلك يا مسفر . سلط الله عليك يا بداح .

— ومتى كان ابن العجمان يشتم ابن الدواسر ؟

— انا اؤدب العجماني . دونك والحملة . امش . فراح مسفر يبربر ويسب العجمان . فخاطبني بداح قائلاً : مسفر لا يحب النكتة . وحنّا نحب نغيظه لنسليك .

عبد العزيز آل سعود

الحَفَر

الباطن – « ديرة » بني هلال – الحفر وآباره حروب القبائل – من يحمي الماء – سائح يرقص عند وصوله الى الحفر وسائح يبكي – الرياح الاربع تحترب في الحفر – جاء مسفر بقدر من الماء يقول : تبغي تسبح ؟ – التراب في الماء وفي الطبخ – هربنا من الحفر فلحقت بنا الرياح – زهرة تبشر برجوع الحياة – والورقاء والخطـاف لا يكذبان – قصة ام سالم والاعرابي – البدو يستطلعون « علومنا » – « وايش لون خذ الشعيب ؟» – الدبدبة – اربعة ايام طيبة ثم الحمى – نشرف على البحر – الجهرة – ريح الشمال وهبوب الجنة – العاصفة – الصلاة والعشاء في الخيمة – الادلاج في ضوء القمر – الربع يلبسون ثيابهم الجديدة – شيء شمو هذلول – الوداع ؟

بعد ان خرجنا من الدهناء دخلنا في الباطن وهو القسم الشرقي الشمالي من وادي الرمة ،وفيه كما يقول اهل نجد ديرة بني هـلال . ها هنا كانت قديماً منازلهم ، وهـا هنا اماكن حروبهم . ولكنه لم يبق من المنازل حتى ما شبهه الشاعر ببـاقي الوشم في ظاهر اليد . لم يبق ظل من الديرة فوق الارض . اما تحتها فالابار العميقة ، المطويـة بالحجارة ،والمحفورة في الصخور ، تـدل على همة في اولئك الاقوام عالية . ولا يزال في هذه القلبان ما لم يقوَ عليه من الاقدار غير غضب الامطار . فقد تحولت من الوادي المياه ،وجفت منذ قرون قلبان بني هلال ، فكانت الطبيعة عوناً لهم اذا اجهزت على من تبقى منهم وهم يتفانون في الحروب . حتى النبات هجر المكان فقلما تجد في الارض التي رويت بدمائهم غير تلك الدالية التي تدب وتنساب كالحية وتثمر ثمراً شبيهاً بالليمون . هو الحنظل يمثل مُرُّ القضاء في « ديرة » الفناء .

في الباطن بعض الرمث ايضاً وهـو – في القاموس – مرعى للابل من الحمض . غير ان الابل لا تدنو منه الا اذا كانت في ارض فيها ماء لانه يولد الظمأ ، وهي لا ترعاه الا قليلاً . قال بداح : الرمث للبُل مثل السكر للانسان – يطلب الماء ولكنه للنار زين. ومع ذلك فان ناقة المتنبي فضلت دخان العنبر على دخانه .

تركتْ دخان الرمث في اوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا

ترى الباطن يضيق في اماكن فلا يتجاوز خمسة عشر ذراعاً ، والى جانبيه جدار عالٍ من الطبقتين الرملية والكلسية . هـوذا عقيق للنهر الذي كان يجري في وادي الرُّمـة . وقيل انه لا يزال يجري ويفيض مرة واحدة كل اربعين او خمسين سنة .

عندمـا نصل الى مكان يدعى ام الهشيم يأخـذ الوادي بالاتساع فتزول تدريجاً جوانبه ، فلا يبقى حولنا وامامنا غير رحب القفر ومـا في فراغه وامتداده من دواعي الغم ،بل من الهول . ان النفس لتنقبض من عقمه العميم ، فتنقلب العين عنه خاسئة . هو القفر السبسب بالذات ، لا حد له ولا ظل فيه . وليس في هذه الكلمات ظل من المبالغة .

ان فيه مع ذلك النعيم المنتظر. هو القفر المختبيء في تضاعيفه ، وراء آفاقه ، الحفر – الحفر ، الماء ، النعيم ! وكنا نعيد انفسنا بواحة مع الماء ورياحين ، بنخيل وظلال طيبة . فوا اسفـاه ! ان الحفَر حفرة دفنت فيها كل امالنا واحلامنا . هو القفر السبسب يقيناً ، تربة رملية ولكنها سوداء ، لا ظل فيها ولا ورقة عشب خضراء او يابسة . وانه ليحزن الفلاح خصوصاً اذا علم بان هذه الارض حول الابار على مسير ساعة في الجهات الاربع هي سوداء من السماد فيها لكثرة ورود المواشي على مائها.

الماء والسماد والتربة الطيبة ، ولا وريقة خضراء فيها .لمَ ذلك ؟ ان

الحفَر ايها القارىء العزيز ميدانٌ اقتتلت وتفانت فيه القبائل . فكان يوماً في يد الضفير ، ويوماً في يد شمّر ، وتارة في حوزة ابن الصباح ، وطوراً تحت امرة ابن الرشيد . كم وقعة ها هنا ، حول هذا المــاء ، روت التربة الطيبة بدم ربيعة ومضر، روّتها بدم ابنائك يا عدنان ، فلا تنبت اليوم حتى الحنظل ، ولا تظلل حتى الجندب .

في الحفر ثماني ابار كلها متهدمة الجوانب . ولا عدة لرفع المـاء الا فوق اثنتين منها فمن يرد الماء وليس معه حبل ولا اناء يعود منه ظمآن، الا اذا وجد هناك من يعيره حبلاً وقربة . قـــد تكون الحروب في الماضي اوجبت هذا الاهمال بل هذا الظلم . الماء لي اليوم وقـد يكون غداً لعدوي ، فلا اصلحه واجهزه بمـا قد يكون فيه هلاكي وهلاك عشيرتي . انما هي عاطفة البدو وقاعدتهم في الحياة . وهم لا يدركون من سر التعاون والتضامن غير الغزو ثم الغنائم .

اما اليوم وسيادة سلطان نجد تمتد الى الحفر وما دونه شرقاً وشمالاً ، والامن والسلام سائدان في بلاده كلها ، والبدو بعنايته الابوية آخذون بالتحضر ، والارطاوية اكبر الهُجَر واهمها هي على يومين جنوباً من هذا المكان، ومَطير فيها تستطيع حماية الماء والمحافظة عليه، فمن العار اذن ان يبقى الحفر كما كان ايام الضفير وشمّر ، في حروب القبائل والامراء.

قال بداح : المستر فلبي [1] عندما وصلنا الى الحفر راح يرقص من شدة الفرح .

ولا عجب اذا كان كل من سافر في هذه الطريق من القصيم الى الكويت ، فقطع النفود والدهناء ، يبتهج ويرقص عندما يصل الى هذا

«١» هو جان فلبي مؤلف كتاب « قلب البـــلاد العربية » ومستشار حكومة شرقي الاردن سابقاً .

الماء . لا عجب اذا كان الرحالة على الخصوص اجنبياً لا ناقة له في البلاد ولا جمل . ومع اني احق من المستتر فلبي بالرقص ، اذ قد نجوت من خطرين ، خطر الطريق وخطر الحمى في الطريق ، فقد كاد قلبي يتفطر من شدة الحزن عندما انخنا في الحفر .

احتللناه يوماً واحداً فشاركتنا في الاحتلال الرياح الاربع . وقد قيل لي ان اثنتين منها في الاقل وكلها غالباً تحتل هذا المكان على الدوام . ذلك لان آفاقه مكشوفة مبسوطة كآفاق البحر . فتجيئه الشمال مدرهمة ، والجنوب غائرة ، والشرقية صافرة ، والغربية مصفقة مولولة ، فتلتقي كلها وتحترب في ذا المكان . دخلت خيمتي ، واقفلت الباب وجلست استمع دوي المعركة ، فاحسست غير مرة ان بيت يومي واقع لا محالة على رأسي .

جاءني مسفر بعد الظهر يسألني اذا كنت ابغي ان اسبح . فظننته يمزح وقلت ضاحكا : نعم . ثم انتبهت الى الجد في امره لانهم في نجد يعبرون عن الحمام بالسباحة . فجاء بعد ساعة بالمرجل الذي يطبخ فيه وقد ملأه ماءً حاراً . فقلت : بارك الله فيك يا مسفر . سنسبح في القدر . فقال مستدركا وهو جاد في كل امره . قد غسلته بالرمل ثم بالماء الحار .

ثم بعد نصف ساعة عاد يحمل في صحن من النحاس الجمر وعود الند وهو يقول : تطيب . ثم مد يده الى عبه واخرج كنزه الاكبر المرآة . وساعدني في لبس الجزمة ، واحكام العقال ، وخرج من الخيمة يقول للربع : باركوا للاستاذ بالسباحة . فقال هذلول فرددت كلماته : نعيم دائم ان شاء الله . وقالت الرياح : ستأكل عشاك مطبوخاً بالتراب .

صدقت الرياح . فكيف يستطيع مسفر او غيره من الطهاة العظام ان يرد عن القدر التراب ما دامت الاربعــــة الاهوية تثيره وتغريه على

الدوام ؟ وكيف يستطيع بداح ومبارك وجعيثن او غيرهم من العربان الاقوياء الاخفاء ان يرفعوا المـــاء ليملأوا القرب والاروية دون ان تعترضهم الرياح فتبعدهم مراراً عن القليب وتخلط حتى بمائنا التراب ؟ ولكن ماء الحفر، وان كان ذا لون ، فـلا رائحة ولا طعم له . حمدنا الله على ذلك وسرحنا باكراً كما مرحنا تحت قسطل من العجاج وبـين امـواج من دوي الاهوية تصم . اني اذكر الآن اننا كنا وقتئذ في اخر شهر شباط ، فيما يسمى بلبنان المستقرضات .

قلت سرحنا ولو كان في الامكان لرحنا غارة من ذاك المكان نبغي السكينة والاطمئنان في الشعبان ولكن الركائب نفسها كانت تمشي كأنها مصعدة في النفود ، فتلوي الرقاب وتصك الركاب ، من شدة صدمات العدو المحيق بنا . وعندما اتخذنا المضحّى كانت لا تزال سرياته تعج حولنا وتثج ، فاخذ كل منا شيئاً من الخبز والطعام بيده، وجلس على الرمل فرفع العباءة على رأسة كالخيمة وشد اطرافها تحت رجليه .

كذلك جلست . وكان الرمل مع ذلـــك يسبق اللقمة الى فمي . وجاءت الحمى في ذاك اليوم العصيب تجهز علي اولا رحمـة الله . على ان الرياح هدأت في اليوم التالي وكنا قد بعدنا عن الحفر.عن القفر اليباب والموت ، فلاح في الارض حولنا شيء من الحياة . هي ذي الرَوْثة ، روثة العام المـاضي وهي شبيهة بالرمث الا ان الحموضة قليلة فيها فتقبل عليها الابل. وهوذا نبت اخضر ، من طلائع الحيا فيهذا العام ، ولكنه ليس من الحيا بشيء ، لان الانعام لا تدنو منه . اما مرآه فقرت بـه العين وانتعش منه الفؤاد. قيل لي انه يدعى بُعيثرَان وهو شبيه بالشمَّر ، زهره اصفر ، ورائحته قارصة .

وهاك في الجو جناحاً صغيراً يسف فيؤنس ، ويزلج امام الهواء

كأنه ورقة خضراء سوداء، جناحاً اسود فيه اخضرار يرفرف حولنا فيبشرنا بالحياة، ثم ينسل في وهج من خيوط الشمس . هو الخطّاف الذى يسميه اهل نجد الرقَيْعي . وجاءت معه الورقاء – أم سالم – تتيّم زهر البعيثران وتجر تيهاً ذيلها ، ذنبها الطويل على الرمل . قال الاعرابي وقد عرّفه رفيقه الى ام سالم: اي بالله واين هو ابو سالم؟ فاشار الرفيق الى الخطاف فقال : وابيك حتى في الطيور تهوى البيض العبيد . وايش قولك يسالم ؟ اولاد العبيد منا كيد .

وكان الخد ، كما يقال في نجد ، اي وجه الارض ، يتغير كلما بعدنا عن الحفر ، فتكثر المفالي[1] ويكثر البدو ، وقد خرجوا بمواشيهم ينتجعون فيلاقوننا ليستطلعوا اخبارنا ويسألوا عن المرعى في الارض التي مررنا بها . كان الاعرابي يرانا ، وهو على مسير نصف ساعة منا فيركض حتى يلحق بنا . واذا تعب يومىء بردنه او بطرف قميصه ان قفوا فنقف امتثالا لامر هذلول .

– السلام عليكم يالاخوان حي الله المسلمين . . . وتسايف انت ؟ وتسايف حالك ؟ الله يزين حالك . . . وابو تركي [2] تسايف حاله ؟ . . وايش علومكم (اخباركم) ؟ وايش لون خد الشعيب (اي ما هو لون المرعى في الشعب الذي مررتم به)؟

في اليوم الثاني بعد سفرنا من الحفر خرجنا من الباطن اي وادي

---

(١) الارض التي فيها مرعى . ومن كلمات البدو اذا نزل المطر : اللهم اجعلها في مفالي ارتسابنا ولا تبل ثيابنا . اي اجعل المطر في الاماكن التي هي مرعى اركائبنا ولا تجعله علينا فتبل ثيابنا . والبدو مثل السياسيين يبغون النعمة دائماً صافية ومقيدة بشروط .

(٢) تركي بكر السلطان عبد العزيز وقد توفي في الوافدة الاسبنيولية بعيدالحرب.

الرُّمة عند مكان يدعى الرقعي ، وسرنا جنوباً بشرق نازلين الى الدِبْدِبَة ، فوصلنا اليها بعد ان اجتزنا بضعة تلال او شعبان ضل فيها الدليل المطيري . وقد كان في ضلاله مشكوراً لانه اقصر بدل ان يطيل الطريق .

الدبدبة سهل فسيح لا يقل عن العشرين الف ميل مربع ، يمتد شرقاً بجنوب وشمالٍ من وادي الرمة ، فيحده غرباً الحفر وشرقاً الشق وتشطره الدرجة الثانية والعشرون من العرض الشمالي . قد كانت الدبدبة ولا تزال تابعة لمن يملك الحفر الا ان قسماً صغيراً منها دخل اليوم في حدود العراق .

والدبدبة كثيرة المفالي ، مخضرة الجوانب ، رقيقة الاديم ، منبسطة الارجاء . تمحي غالباً اثر الطريق فيها فيسير من كان ناحراً الكويت وظله امامه او وراءه ، واذا اسرى فبرج الجدي الدليل الذي لا يضل . وفي الدبدبة من القنص الحبارى والقطا والأرانب والغزلان . على ان الماء قليل ، وهو غير موجود في الطريقين من الحفر الى الكويت . اي الطريق الشرقية في خط مستقيم الى خبرة الدويش وطولها مئة ميل والطريق التي اتخذناها الى الجهرة شمالاً وهي مئة واربعون ميلاً .

ومع ذلك فقد ظفرنا في الدبدبة باربعة ايام طيبة سرنا فيها سير الهون اكراماً للركائب ولانفسنا . وقد كان لنا ما كان لها من الخير واللذة في تغيير الهواء والمناظر والمرعى ! فالابل تستلذ العرفج والارطي الخضراء وكانت في الدبدبة وافرة من نعمة الله . ونحن نستلذ الحبارى والكمأ ، وكان مبارك وجعيثن يقنصان بينما ابراهيم ومسفر وحمود يبحثون في الارض فيجيئوننا كلهم في المساء

بخضار تنـدر حتى في باريس ولندن ، الا اذا ُبـذل في سبيلها كثير من المال . لا اظن ان في الشمال كمأةتفوق خصباً ولذة كمأة الدبدبة اربعة ايام طيبة ، ثم الحمى !

لله ما ابلدك وما احمقك ،ايتها العجوز البصرية ، اذا كنت تظنين انك تجيئين في اليوم الخامس لتفسدي علينـــا هذه الاربعة المباركة فتنسينا حسنات الدبدبة كلها . جئت ِ لا اكرم الله مسواك ، ونزلت ضيفاً علينا ، فأكلت ما تبقى عندي من الكينا وملح الاثمار ، وعدت بخفي حنين . العفو ، يا حنين . هي اول مرة في حياتي الجأ الى خفيك لاطرد بهما عجوزاً شمطـاء . ولو لم تكن عربية الاصل ومن البصرة ، هذه الحمى ، ولو لم اكن الآن في البلاد العربية لما ازعجتك يـا حنين ، ولما اتخذت لغرضي نعلك القديم الجليل .

راحت المسكينة تعرج ، ونهضنا في اليوم السادس بعد نصف الليل منشطين ،فأسرينا في ضوء القمر لنصل الى الجهره صباحاً . وما ابهجها ساعة اطللنا فيهاعلىالبحر ! البحر بعد اربعة اشهر فيقلب البلاد العربية ، ما اجمله وجهاً وما اكرمه يداً . وما ابلغه رمزاً . القفار ابعدتني عن العالم والبحر يعيدني اليــه . القفار قربتني من الله ، والبحر يقربني من الاهل والخلان . وانه ليلذ لي ، وانا من الناس ، ما يلذ لعامة الناس . فلا اكتم القارىء ان العشرةالالهية الدائمة تضايقمن لم ينتصر ولا حاول مرة ان ينتصر على الجسد . انني اعجب بالقديسين انطونيوس الكبير وسمعان العمودي . ولكني بعد اشهر اقمتها في ظله تعالى ، واحسست مرة ان الظل تجسم قدامي على ظهر الذلول ليساعدني على الحمى ، بعـد هذه الاشهر المباركة ابغي الرجوع الى ما فيه شيء من الحب البسيط الفاني ، ابغي الرجوع الى توافه المدنية ومبتذلات الحياة البشرية .

الجهرة بلدة عند جبل الزور على ساعد من الخليج يمتد غرباً من الجون وراء مدينة الكويت ، والمسافة بينهما وبين العاصمة لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً . وهي مشهورة بكثرة ابارهـا ، وبقصر فيها لشيخ الكويت ، وبتلك الوقعة بين اهلها والاخوان التي سيجيء ذكرها .

انخنا خارج السور على كثيب من الرمل وارسلنا بداحاً بكتاب الى سمو الشيخ احمد الجابر ال الصباح نعلمه بوصولنا ونستأذنه بالدخول الى المدينة . كنت قد كتبت اليه من الرياض وجاءني منه الجواب مرحباً بي . ولكن هذلولاً ، وهو ولي الامر ، حريص على الرسميات فلا يدخل مدينة قبل ان يسبق منه علم بذلك الى اميرها .

ما كدنا ننصب الخيام حتى جاء بعض افاضل الجهرة وفي مقدمتهم امير القصر يزوروننا ويدعوننا للقهوة في بيوتهم . فذكرونا باهل القصيم في ترحيبهم بالغريب . قضينا بضع ساعات من ذلك اليوم نشرب القهوة والشاي ونسمع ما يتسرب من العاصمة الى هذه القرية من اخبار العالم . على ان اهلها يهتمون لما في البادية ، على ما ظهر لي ، ولأخبار نجد والاخوان اكثر من سواها . اخبروني ان الجهرة مجلبة للرياح مثل الحفر ، وان الهبوب التي مهبها الشمال مسلطة عليها . على انهم لا يخافونها بقدر ما يخافون « هبوب الجنة » التي مهبّها الجنوب .

وانا اكره الهبوب سواء أكانت جنوبية ام شمالية ، فشكرت الله ان مسرحها في الجهرة يوم نزلنا فيها كان خالياً هادئاً . شكرت الله . وبينا كنت عائداً من البلدة رددت اية الحمد فسمعني هذلول فقال : الحمدلله في كل حال ولكن هذا المهب (١) .

لم أرَ له اثراً حيث كنا ، غير انه كان يجمع جيوشه فوق جبل

(١) هم يعبرون عن الهبوب او الريح المثيرة للغبار بالمهب .

الزور ودونه في الافـق الغربي . وكانت طلائعـــه كالغيوم السود الماطرة وحركتها ظاهراً بطيئة .

اسرعنا الى المناخ فالفينا الربع حول نار سالم يشربون القهوة ويتحادثون وهم لاهون عما هو حادث هناك . فصاح بهم هذلول وامرهم بان يرفعوا الشراع ويطووه ويوطدوا اوتاد الخيمة خيمتي . فما كادوا يتممون العمل حتى وصلت الينا سريات هبوب الشمال .

امر الامير الخدم بان يزموا العفش ويتأهبوا للرحيل . ولكن سريات من الغرب والجنوب احاطت بهم فاوقفتهم ، وشتتهم ،وكادت تذهب بقمصانهم . لجأوا الى الجهة الشرقية من الخيمة فهوت و كادت تقع عليهم .

– اقضبوا [١] الحبال حمود وحمد وجعثين اقضبوا الحبال ولا تبرحوا الخيمة . مكانكم .

فتمسك الثلاثة بحبالها والرياح من النواحي الثلاث تذري الرمال عليها وعليهم .

وكانت ساعـة المغرب والعشاء والصلاة . الصلاة اولاً . و كيف يصلون ، وهم اذا استقبلوا القبلة يستقبلون الهبوب – هبوباً ولا « هبوب الجنة » .

دعوتهم الى الخيمة فدخلوا كلهم الا الثلاثة القابضين على الاطناب فاذّن مسفر ثم صلوا ، وصليت معهم وانا جالس على السرير . أوَلا يخلق بي ، وهي اخر ليلة مع « خوياي » ان اشاركهم في الصلاة وفي العشاء .

جاء مسفر وابراهيم يحملان المرجل الكبير الى الخيمة فرفعا الغطاء،

(١) قضب لغة نجد في قبض .

فاذا على وجهه قطيفة من الرمل ، فكشطها مسفر بالمغرفة وصب ما فيه من الارز واللحم . فحرنا الزاد ونحن جالسون القرفصاء . ولكن الرياح وهي تصفر وتنفخ من خلال فرَج الخيمة ومن تحتها كانت تسابقنا اليه ، فيجيء الرمل ، في كل سفة من الارز كالبذر في الصبير . وما كنت تسمع مقطعاً او حرفاً واحداً من الشكوى الا اذا كانت باطناً مني . بيد اني كظمت وتجلدت خجلاً من ابطال نجد ، وشكرت الله معهم على عشاء من الارز والرمل .

بتنا كلنا في الخيمة نقص القصص ، والرجال يتناوبون حراستها ، والرياح تولول حولها وتحاول عبثاً اقتلاعها . كنت قد سألت هذاولاً غير مرة ان يملي علي شيئاً من شعره فأبى اتضاعاً ، فألححت عليه — هي آخر ليالينا يا هذاول — فاكرَمني .

وكان قد انتصف الليل فطلع القمر وسكنت الرياح . فقمنا نتأهب للرحيل . أسرينا من الجهرة مكرهين ،وبعد ساعتين انخنا ليتم الربع عملاً لا بد منه . يجب ان يغيروا ثياب السفر قبل ان يدخلوا الكويت.

شببنا النار وفرشنا بعض الفرش فحاولت ان انام ساعة بينما « خوياي » يلبسون اثوابهم الرسمية ويزينون انفسهم .ولكني وجدت شرب القهوة ورعي النجوم اسهل من النوم .

لبس كل من الربع الكسوة الجديدة التي انعم بها السلطان عبد العزيز قبل السفر من الرياض . ولبس هذاول ورجاله النجاد بالجلد فوقها وتمنطقوا بمناطق الفشق ،واخرجوا البنادق من بيوتها،والغطرات الجديدة من الاخراج . وكانت مرآة مسفر الصغيرة تقوم فضل القمر بواجبها ، فتداولتها الايدي وبسمت لها الوجوه .

وكنت انا ، ويا للعجب من امري ، اسيرَ اكتئابٍ حاولت ان

اظهر عليه او اخفيه . قد ادركت وتيقنت اننا في المرحلة الاخيرة بل في الساعة الاخيرة من رحلتنا . وكم مرة وددت النهاية وتقت وحننت اليها . على انه في تلك الساعة ، وانا مـــدرك ان القمر لا يطلع مرة اخرى علينا ، علي وعلى هؤلاء الاخـوان الحقيقيين المحبين المخلصين ، في تلك الساعة ، ساعة الفراق اعتراني الغم ووددت من الزمان يوماً اخر نسير فيه الى واحة من الواحات ، وليلة اخرى نسمر فيها حول نار سالم ، فيرقص مسفر رقصة الاخوان ، ويطعم ابراهيم النار الى ان يتخلل دخانها خيوط الشمس الذهبية .

« حنّا اهل العوجا – مروية السنين »

ولكن شعر هذلول النبطي الذي املاه علي منذ ساعة – وستظل بالرغم من الايام والليالي منذ ساعة – لا يزال يرن في الاذن والفؤاد . وما احسن اختيارك ايها الدوسري الكريم ، وما اجمل العاطفة في تلك الابيات التي بعثتَ بها الى احد خلانك فهي تنطق بلسان حالي اذا ما ذكرتك وذكرت « خويانا » كلهم اجمعين .

يا علي يوم السبت ونـّيت ونـّه (انّ وحن)
يوم ارتحلتوا فوق عوص النجايب (الهجن الحرة)
يا ليتني معكم على كوارهنّ (اكوارهن)
مع ربعي اللي هرجهم لي عجايب (حديثهم)
بالله يا خلاق نارٍ وجنه
نسألك يا منشيء صفوف السحايب (الغيوم التي تجود بالامطار)
تسيّر عِام الدين لديارهن
حتى نشوف صويحبي والحبايب
صويحبي اللي مني وانا كنت منـّه

عبد العزيز آل سعود

منساه (لا انساه) لو رزّت علي النصايب (حجارة القبر)

ادلجنا من ذاك المكان . وما هي الا ساعة حتى انبلج الفجر وبانت من وراء حجابه الفضي الشفاف مدينة الكويت .